الإمام السجاد (عليه السلام) قدوة وأسوة

تأليف

السيد محمد تقي المدرسي

تمهيـد

الفصل الأول: لمحة عن الإمام(ع)

الفصل الثاني: ميــلاده وعصــره(ع)

الفصل الثالث: دور الإمام(ع) في الإعلام الرسالي

الإمام السجاد (عليه السلام) قدوة وأسوة

تأليف

السيد محمد تقي المدرسي

تمهيد

وأنا أقرأ حياة الإمام السجاد (ع) ، حاولت أن أرسم في ذهني صورة متكاملة عن شخصيته وما كدت أنتهي من ذلك حتى تذكرت آيات الذِّكر التي ترسم صورة عباد الله الصالحين .

عندما نتدبر في تلك الآيات ، يوسوس الشيطان في أنفسنا . هل إنها تحدِّثنا عن بشر أمثالنا أم عن ملائكة خُلقوا من نور قدرة الله ؟. أم أنها روائع أدبية ؟. حاشا لله تعالى أن تكون في كلمات الله ذرة من المبالغة . أوليست المبالغة كذباً ؟. والكذب من الباطل الذي لا يأتي كتاب الله الكريم . ونحن نعرف الحقيقة تماماً حينما نتلو قصص الأنبياء والأئمة وندرك أن تمثيل تلك الصورة المشرقة التي تعكسها الآيات عن حياة عباد الله الأبرار أنه حقيقة واقعة ، ونَفهم أننا مدعوُّون لاتِّباعهم فيها ..

وبهذا بالذات تكمن حكمة الولاية حيث أمرنا الله أن نبتغي الوسيلة إليه سبحانه عبر ولاية أوليائه . وأن نطلب منه الهدى كما هدى الذين أنعم عليهم ، وأن نركع مع الراكعين . ونكون مع الصادقين ، ونرجو الإلتحاق بركب الصالحين .

إن ولاية أولياء الله تجعلنا نتلمس سيرة حياتهم النيِّرة ، وحين نتعرف عن كثب عليهم نتحصن ضد وساوس الشيطان الذي يوحي إلى أوليائه أن تمثيل صفات القرآن هذه مستحيل ، أو أنها إنما ذُكرت تشجيعاً ، أو هي روائع أدبية بليغة .

إن هذا الوسواس أعظم مكائد الشيطان في إغواء البشر عن معارج الكمال الإلهي .. ولا يقضي عليه شيء مثل دراسة حياة الأنبياء والأئمة والصدِّيقين باعتبارهم بشراً أمثالنا أنعم الله تعالى عليهم ورفعهم إليه مقاماً محموداً .

ومنذ ثلاث وعشرين عاماً أنعم الله عليّ بالتأليف عن حياة الأئمة الهداة ، عبر مناسبات نادرة . لذلك لم أُوفق لإكمال سلسلة قدوة وأسوة .. حول النبي وأهل بيته الكرام صلوات الله عليهم أجمعين .

واليوم حيث وفقني الله سبحانه لكتابة تدبُّراتي في القرآن ، والتي سميتها (من هدى القرآن) أعود إلى هذه السلسلة عسى الله تعالى أن يوفقني هذه المرة لإتمامها . ولكن كنت أتساءل : ماذا أسمِّي هذه السلسلة التي بقي منها أربعة أجزاء من أصل أربعة عشر جـزءاً . وأخيراً وقعت على اسم مناسب وهـو : (النبي وأهل بيته قدوة واسوة) . وحيث إن القرآن هدى للمتقين ، وحياة الأئمة تمثيل للقرآن فقد جاء الاسم مناسباً لذلك ، كما أنه تناغم مع اسم كتابي (من هدى القرآن) ولكن ازدادت حيرتي عندما وقفت على شاطئ بحر زخار ماذا اغترف منه وأقدمه للأخوة القرَّاء ، وقد كتبت من المذكرات حول حياة الإمام (ع) ما تكفي لكتابة مجلد كبير . بيد أني حكمت على نفسي بالكتابة المختصرة ، وهنا يكمن سبب حيرتي ماذا أختار من حياته التي لا يتسع قلم مثلي لاستيعابها .

وهكذا أستميحكم عذراً لو وجدتم قصوراً أو تقصيراً واسعَين في الحديث عن حياته الكريمة ، واعتبروا هذه الدفاتر مدخلاً إلى الكتب المفصلة عن حياته .

وأسأل الله تعالى أن يوفقني لذلك ، وأن يحفظ عملي من شوائب الرياء والسمعة والأشر والبطر ، ويتقبله ويحصنه من الإحباط بالعُجب والذنب ، إنه ولي التوفيق.

الفصل الأول

تتملَّكنا الدهشة عندما نستمع إلى الوحي يأمرنا بالولاية ، ونتساءل : ما هذا التأكيد المتواصل ، وما هذه التعابير البالغة أمراً وتحريضاً وترغيباً ؟.

يقول الله سبحانه : { أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأمْرِ مِنْكُمْ } (النساء/59) .

وتتكرر أوامر القرآن بالطاعة لأولي الأمر الشرعيين والتسليم لأمرهم ، والنهي عن طاعة الطغاة والجبابرة وضرورة الكفر بهم أكثر من مئة مرة ، بصيغ مختلفة ، وضمن سياقات شتى ، كلها تهدف إلى ترويض النفس البشرية على الطاعة والانضباط ..

ويقول سبحانه وتعالى : { فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً } (النساء/65)

وتتواصل آيات الذكر لتؤكد على الرجوع إلى الله ورسوله عشرات المرات وبتعابير شتى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً } (النساء/60) .

وهكذا العديد من الآيات تنهى وبشدة بالغة من التحاكم إلى الطاغوت وتأمر باجتنابه .

ويقول ربُّنا سبحانه وهو ينهي مئات المرات عن الشرك ويعتبره ظلماً عظيماً لايغفره الله تعالى أبداً ، يقول : { وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ } (الزمر/65) .

فما هو الشرك ؟ أليس هو عبادة الأصنام ؟ أليس أتخاذ الأرباب من دون الله شركاً ، كما اتخذ اليهود والنصارى الأحبار والرهبان أرباباً ؟..

وهكذا نجد أن الولاية الإلهية محور آيات الذكر وروح توحيد الله تعالى ، والسبيل إلى رضوانه ، والطريق إلى جنَّاته .

فلماذا كل ذلك ؟. إن شرح حكمة ذلك يقتضي كتباً مفصلة . ولكننا نختصرها في كلمات نرجو أن يسعفنا فيها تدبُّر القارئ الكريم ، وآفاق ثقافته الإسلامية .

أولاً : أمام الإنسان سبيلان : سبيل الله الذي يهديه إلى الجنة والرضوان ، وسبيل الشيطان الذي يحمله إلى سواء الجحيم . ويتَّجه كل سبيل إلى جهة ، ولكل جهة إمام ، ولكل إمام صفات وأسماء ، ولكل أمة تابعة صبغةٌ وشرعةٌ ومنهاجٌ !

والصراع الأبدي الذي لا هدنة فيه ولا مداهنة ولا حلول وسط ، أنه الصراع بين سبيل الله وسُبُل الشيطان .

وقد قال سبحانه : { يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } (المائدة/15-16) .

وولاية الله سبحانه ، وتولي أوليائه ، واتِّباع الإمام المختار من عنده ، والإنخراط في حزب الصالحين ، كلُّها بلا ريب الولاية الإلهية . فكيف لا تتواصى بها رسالات الله ورُسله وأوصياؤهم .

ثانياً : حكمة وجود الإنسان فوق هذا الكوكب ابتلاؤه ليَعلم هل يَصدق أم هو من الكاذبين ؟. هل يُخلص أم يكون من المنافقين ؟. ولا يُبتلى البشر بشيء كما يبتلى باتِّباع القيادة الإلهية ورفض جبابرة المال وطغاة السلطة ، أو تدري لماذا ؟

إن في ضمير الإنسان كبراً لابد أن يتغلب عليه حتى يصبح من أهل الجنة . وإن لم يتخلص منه باجتهاده وجهاده في الدنيا ، فإنه سوف يخلص منه بنار الجحيم في الآخرة ، لأنه لايدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر . ومحتوى الكبر النزعة السخيفة نحو ادِّعاء الربوبية . ولو تسنى لأي إنسان ما تسنى لفرعون لما امتنع عما قاله : { أَنَاْ رَبُّكُمُ الأَعْلَى } (النازعات/24) .

وإنما يتطهر القلب عن الكبر إذا أُمر بطاعة مَن ليس بأكثر منه مالاً وولداً . إطاعته بسبب أمر الله . وهكذا كانت الفتنة الكبرى للناس عند ابتعاث الرسل ، إذ كيف يطيعون بشراً من أمثالهم ؟. وقد حكى الله تعالى عنهم بقوله : { أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ } (القمر/24) .

ويتساءل البسطاء : لماذا امتحن الله تعالى خلقه بطاعة الأنبياء وطاعة أوصيائهم ، وقد اختارهم من أوساط الناس ؟. ويمضي المتسائل قائلاً : أولم يكن من الأفضل أن يزوِّدهم الله سبحانه بقوى خارقة وبأموال وبنين حتى تسهل طاعة الناس لهم ؟

كلا .. لأنه عندئذ كانت تبطل حكمة الإبتلاء ، ولم تكن تصبح طاعتهم تطهيراً للنفوس من الكبر ، وبالتالي لم يكن المطيعون لهم يزكّون بذلك إعداداً لدخول الجنة التي هي مأوى عباد الله الخالصين من دنس الشِّرك والكبر .

وهكذا يبين هذه الحكمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) إذ يقول : " ولو أراد الله أنْ يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه ، ويبهر العقول رداؤه ، وطيبٍ يأخذ الأنفاس عَرفُه لَفعل . ولو فعل لَظلت له الأعناق خاضعة ، ولخفَّت البلوى فيه على الملائكة ، ولكن الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله ، تمييزاً بالاختبار لهم ، ونفياً للإستكبار عنهم ، وإبعاداً للخيلاء منهم ".(1)

ويضيف الإمام (ع) في ذات السياق قائلاً :

" ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه – حيث بعثهم – أن يفتح لهم كنوز الذُّهبان ومعادن الْعُقيان ، ومغارس الجنان ، وأنْ يحشر معهم طيور السماء ، ووحوش الارض لَفعل . ولو فعل لَسقط البلاء ، وبطل الجزاء ، واضمحلت الأنباء ، ولَما وجب للقابلين أجور المبتلين ، ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين ، ولا لزمت الأسماء معانيها . ولكن الله سبحانه جعل رُسله أولي قوة في عزائمهم ، وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم ، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنىً ، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذىً " (2).

وبعد بيان مفصل حول حكمة الاختبار في فصل زخارف الدنيا عن أولياء الله يقول سلام الله عليه :

" ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ، ويتعبَّدهم بأنواع المجاهد ، ويبتليهم بضروب المكاره ، إخراجاً للتكبر من قلوبهم ، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم .

فالله الله في عاجل البغي ، وآجل وخامة الظلم ، وسوء عاقبة الكبر ، فإنها مصيبة إبليس العظمى ، ومكيدته الكبرى ، التي شاور وقلوب الرجال مشاورة السموم القاتلة " (3).

وهكذا حرَّض الوحي على التسليم للأنبياء وأولي الأمر من خاصتهم ، وجعل فيه ثواباً عظيماً .

وجاء في حديث مأثور عن النبيِّ (ص) ، أنه قال :

" إنّ أوثق عُرى الإيمان : الحب في الله ، والبغض في الله ، وتولّي أولياء الله ، وتعادي عدوَّ الله " (4).

وروي عن الإمام زين العابدين (ع) قوله :

" مَن أَحبنا لا لِدُنيا يصيبها منّا ، وعادى عدوَّنا لا لشحناء كانت بينه وبينه ، أتى الله يوم القيامة مع محمد وإبراهيم وعليّ " (5) .

وكما يتحدى الإنسان بالولاية نزعة الكبر وادِّعاء الربوبية في ذاته ، يتحدى بها نزعة الطمع وشهوات الدنيا ، لأن من يطيع أولياء الله يحاربه طغاة الأرض والمترفون في الدنيا بشتى وسائل الحرب ، بالدعاية المضادة وبالتضييق الإقتصادي ، وبالأذى الجسدي ، وحتى بالتشريد والقتل .

ولأن الولاية كانت امتحاناً عظيماً للإنسان ، جُعلت شرطاً بقبول الأعمال ، حيث إن هدف سائر الطاعات تذليل النفس البشرية المتفرعنة والمتجبرة . وتذليلها لطاعة ربها ، وتطهيرها من عبودية الله عن دنس الكبر والشرك والشك . وهذا الهدف يبلغ قمته بالولاية ، حيث يخضع البشر لبشر مثله لا

يتميز عنه بجاهٍ عريض ، ولا بثروة واسعة وإنما يأمره الله تعالى بذلك ، وهذا ما تأباه النفس أشد الإباء . وقد سأل بعضُهم أن يَنزل عذابُ الله الواقع لكي لا يؤمن بالولاية .

وها نحن نقرأ معاً أحاديث في فضل الولاية ، لنعرف مدى فضلها وكيف أنها قطب الرحى في تعاليم الوحي .

جاء في حديثٍ مفصلٍ عن أمير المؤمنين (ع) في إجابته لأسئلة زنديق :

" إن الإيمان قد يكون على وجهين : إيمان بالقلب ، وإيمان باللسان كما كان إيمان المنافقين على عهد رسول الله (ص) لمَّا قهرهم السيف وشملهم الخوف ، فإنهم آمنوا بألسنتهم ، ولم تؤمن قلوبهم ، فالايمان بالقلب هو التسليم للرب ، ومن سلَّم الأمور لمالكها لم يستكبر عن أمره – كما استكبر إبليس عن السجود لآدم ، واستكبر أكثر الأمم عن طاعة أنبيائهم ، فلم ينفعهم التوحيد ، كما لم ينفع إبليس ذلك السجود الطويل ، فإنه سجد سجدة واحدة أربعة آلاف عام ، لم يرد بها غير زخرف الدنيا ، والتمكين من النظرة ، فلذلك لا تنفع الصلاة والصدقة إلاّ مع الاهتداء إلى سبيل النجاة وطريق الحق " (6) .

ولذلك لم يقبل الله سبحانه طاعة عبد لم يقبل الولاية مهما اجتهد في العبادة والطاعة . هكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق (ع) عن آبائه (ع) ، إذ قال :

" مرّ موسى بن عمران برجل رافع يده إلى السماء يدعو فانطلق موسى في حاجته فغاب عنه سبعة أيام ، ثم رجع إليه وهو رافع يَديه يدعو ويتضرع ويسأل حاجته ، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه : يا موسى لَو دعاني حتى يسقط لسانه ما استجبتُ له حتى يأتيني من الباب الذي أمرته به " (7) .

فولاية الإنسان صبغة أعماله ، إنْ خيراً فخيرٌ وإن شرّاً فشرّ . لذلك جاء في الحديث المأثور عن رسول الله (ص) ، فيما رواه أبو سعيد الخدري :

" لو أنّ عبداً عبد الله ألف عام ما بين الركن والمقام ، ثم ذُبح كما يذبح الكبش مظلوماً ، لَبعثه الله مع النفر الذين يقتدي بهم ، ويهتدي بهداهم ، ويسير بسيرتهم إن جنة فجنة ، وإن ناراً فنار " (8) .

وهكذا الولاية تكون وجهة المجتمع ، وعليها يكون الحساب والجزاء . فقد روي عن الإمام علي (ع) عن النبي (ص) عن جبرئيل (ع) عن الله عزّ وجلّ ، قال :

" وعزتي وجلالي لأُعذبنَّ كل رعية في الإسلام دانت بولاية إمام جائر ليس من الله عزَّ وجلَّ ، وإن كانت الرعية في أعمالها برَّة تقية ، ولَأعفونَّ عن كل رعية دانت بولاية إمام عادل من الله تعالى وإن كانت الرعية في أعمالها طالحة مسيئة " (9) .

فَضمنَ إطار الولاية الإلهية لابد أن نعرف شخصية الإمام السجاد (ع) وأبعاد حياته . إنه لم يكن كسائر الأنبياء والأئمة . ولا يكون خلفاؤهم من الصدِّيقيين والعلماء الربانيين طُلاب حكم وسيطرة ، أو قادة حركات سياسية كالتي نفهمها . لا ، ولكنهم سعوا جاهدين من أجل تطهير قلوب الناس من الجبت ، ومجتمعاتهم من الطاغوت . ولكن ذلك لم يكن حكمة حياتهم الأولى حتى نقول : إنهم قد فشلوا في تحقيق ذلك ، وإنما كانت الحكمة الأولى ابتلاء الناس ، حيث قاموا بتلاوة وحي الله وبتعليم الناس وتزكيتهم . وقد قال ربُّنا سبحانه :

{ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ } (الجمعة/2) .

بلى ، كان من الأهداف السامية لبعثة الرسل ، ونهضة اوصيائهم ، وقيام أوليائهم ، إعداد الناس للقيام بالقسط . ولا أقول قيامهم بالقسط بين الناس ، لأن ذلك يوحي بالوكالة في ذلك ، وهذا ما ينفيه الوحي ببلاغة نافذة . فاستمع إلى قول ربِّك العزيز :

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ } (الحديد/25) .

الإمام السجاد وريث الأنبياء :

ولأن الإمام زين العابدين (ع) ورث عن جده النبي المصطفى (عليه وآله الصلاة والسلام) دور الأنبياء ، فإن الحكمة الأولى لإمامته هي ذات الحكمة الأولى في رسالة الأنبياء ، ابتلاء الناس بعد دعوتهم إلى الله ، وكانت سائر الأهداف السامية – كإقامة القسط ونصرة المظلومين – في امتداد تلك الحكمة ، أي أنها تتفرع منها وتأتي بعدها .

ولقد تسنَّت لسائر أئمة الهدى (ع) الظروف للقيام بتلك الأهداف المتدرجة ، وبالذات الهدف السياسي ، كما فعل الإمام علي (ع) عندما نهض بأعباء الحرب ضد قريش مرتين ، مرة في عهد النبي وتحت لوائه ، ومرة بعد النبي وتحت لواء الرسالة الحنفية وبرفقة أصحاب النبي (ص) . وهكذا نجله الإمام الحسن (ع) . حيث نهض هو الآخر بأعباء الحرب ضد معاوية ، ثم أوقف الحرب لمصلحة المسلمين . وكذلك الإمام الحسين (ع) حيث قاوم معاوية بالسبل السلمية ، وقام ضد ابنه يزيد بالسيف حتى استُشهد مظلوماً .

وهكذا قام سائر الأئمة بأدوار سياسية ، وبوسائل غير مباشرة ، وبدرجات مختلفة .

بينما الظروف العامة كانت تناسب تمخض الإمام السجاد (ع) تقريباً في الدعوة الربانية ، حسبما نبين ذلك في مناسبة أخرى إن شاء الله تعالى .

وبذلك كانت حياة الإمام السجاد قطعة مشرقة بنور ربِّه .. وكانت تجلياً باهراً للإيمان الخالص بالله ، وللهيام الشديد بالله ، وللعبادة والتبتل .

وحينما نقرأ معاً صفات الإمام على لسان نجله الإمام الباقر (ع) ، نعرف ماذا تعني ولاية الله ، وولاية أوليائه ، ولماذا التأكيد عليها ، وكيف كانت حياة السجاد شلال نور إلهي . يقول نجله الإمام الباقر (ع) : " كان علي بن الحسين (ع) يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ، كما كان يفعل أمير المؤمنين (ع) . كانت له خمسمائة نخلة . فكان يصلي عند كل نخلة ركعتين ، وكان إذا قام في صلاته غشي لونه لون آخر ، وكان قيامه في صلاته قيام العبد الذليل بين يدي الملك الجليل ، كانت أعضاؤه ترتعد من خشية الله عزَّ وجلَّ ، وكان يصلي صلاة مودِّع يرى أنه لا يصلي بعدها أبداً ، ولقد صلَّى ذات يوم فسقط الرداء عن أحد منكبيه فلم يسوِّه حتى فرغ من صلاته ، فسأله بعض أصحابه عن ذلك ، فقال : ويحك أتدري بين يدي مَن كنت ؟. إنَّ العبد لا يُقبل من صلاته إلاّ ما أقبل عليه منها بقلبه . فقال الرجل : هلكنا ، فقال : كلاَّ .. إن الله عزَّ وجلَّ متمم ذلك بالنوافل وكان (ع) لَيخرج في الليلة الظلماء فيحمل الجراب على ظهره ، وفيه الصرر من الدنانير والدراهم وربما حمل على ظهره الطعام أو الحطب ، حتى يأتي باباً باباً فيقرعه ، ثم يناول مَن يخرج إليه . وكان يغطي وجهه إذا ناول فقيراً لئلا يعرفه . فلما توفي (ع) فقدوا ذلك ، فعلموا أنه كان علي بن

الحسين (ع) . ولما وُضع (ع) على المغتسل نظروا إلى ظهره وعليه مثل رُكَبِ الإبل . مما كان يحمل على ظهره إلى منازل الفقراء والمساكين . ولقد خرج ذات يوم وعليه مطرف خز فتعرض له سائل فتعلّق بالمطرف فمضى وتركه ، وكان يشتري الخزَّ في الشتاء ، إذا جاء الصيف باعه فتصدق بثمنه ، ولقد نظر (ع) يوم عرفة إلى قوم يسألون الناس ، فقال : ويحكم أغير الله تسألون في مثل هذا اليوم ، إنّه ليُرجى في هذا اليوم لِمَا في بطون الحبالى أنْ يكون سعيداً ؟. ولقد كان (ع) يأبى أن يؤاكل أُمَّه ، فقيل له : يابن رسول الله أنت أبرُّ الناس وأوصلَهم للرحم ، فكيف لا تؤاكل أمَّك ؟ فقال : إني أكره أنْ تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه . ولقد قال له رجل : يابن رسول الله إني لأحبُّك في الله حبّاً شديداً ، فقال : اللهم إني أعوذ بك أن أُحبَّ فيك وأنت لي مبغض . ولقد حج على ناقة له عشرين حجة فما قرعها بسوط ، فلما نفقت(10) أمر بدفنها لئلا يأكلها السباع . ولقد سئلت عنه مولاة له فقالت : أُطنب أو اختصر ؟ فقيل لها : بل اختصري ، فقالت : ما أتيته بطعام نهاراً قط ، وما فرشت له فراشاً بليلٍ قط . ولقد انتهى ذات يوم إلى قوم يغتابونه فوقف عليهم ، فقال لهم : إن كنتم صادقين فغفر الله لي ، وإن كنتم كاذبين فغفر الله لكم . وكان (ع) إذا جاءه طالب علم فقال : مرحباً بوصيِّ رسول الله (ص) . ثم يقول : إن طالب العلم إذا خرج من منزله لم يضع رجلَيه على رَطب ولا يابس من الأرض ، إلاّ سبَّحت له إلى الأرضين السابعة ، ولقد كان

يعول مئة أهل بيت من فقراء المدينة . وكان يعجبه أن يحضر طعامه اليتامى والأضرار والزّمنى والمساكين الذين لا حيلة لهم . وكان يناولهم بيده ، ومن كان له منهم عيال حمل له إلى عياله من طعامه ، وكان لا يأكل طعاماً حتى يبدأ فيتصدق بمثله . ولقد كان تسقط منه كل سنة سبع ثفنات من مواضع سجوده لكثرة صلاته ، وكان يجمعها ، فلما مات دُفنت معه . ولقد بكى على أبيه الحسين (ع) عشرين سنة ، وما وضُع بين يَديه طعام إلاّ بكى ، حتى قال له مولى له : يابن رسول الله أَمَا آن لِحُزنك أن ينقضي ؟. فقال له : ويحك ، إن يعقوب النبيَّ (ع) كان له اثني عشر ابناً فغيَّب الله عنه واحداً منهم ، فابيضَّت عيناه من كثرة بكائه عليه ، وشاب رأسه من الحزن ، واحدودب ظهره من الغم ، وكان ابنه حيّاً في الدنيا وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعمي وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي فكيف ينقضي حزني ؟" (11).

وقد زخرت كتب التاريخ بكرامات الإمام (12) ولا عجب فإن إماماً هذه صفاته ، يكرمه الله بفضله ، أولم يكرم الله عباده الصالحين باستجابة دعواتهم ؟

وقد قال سبحانه : { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } (غافر/60) .

فكيف لا يستجيب لمن ذاب في حب ربه حتى خشي عليه الهلاك من شدة العبادة . ولننظر معاً في الرواية التالية ثم نقيسها بما نعرفه من قصص القرآن حول الصالحين من عباد الله ، نرى أنهما نبعان من عين واحدة .

عن إبراهيم بن أدهم وفتح الموصلي ، قال كل واحد منهما : كنت أسيح في البادية مع القافلة ، فعرضت لي حاجة فتنحيت عن القافلة ، فإذا أنا بصبي يمشي ، فقلت : سبحان الله بادية بيداء وصبي يمشي ؟. فدنوت منه وسلَّمت عليه ، فردّ عليَّ السلام . فقلت له : إلى أين ؟. قال : أريد بيت ربِّي . فقلت : حبيبي ، إنك صغير ليس عليك فرض ولا سنَّة . فقال : يا شيخ ما رأيت من هو أصغر سنّاً مني مات ؟ فقلت : أين الزاد والراحلة ؟ فقال : زادي تقواي ، وراحلتي رجلاي ، وقصدي مولاي . فقلتُ : ما أرى شيئاً من الطعام معك ؟ فقال : يا شيخ هل يستحسن أن يدعوك إنساناً إلى دعوة فتحمل من بيتك الطعام ؟. قلت : لا ، قال : الذي دعاني إلى بيته هو يطعمني ويسقيني . فقلت : ارفع رجلك حتى تدرك (13) فقال : عليَّ الجهاد ، وعليه الإبلاغ . أما سمعت قوله تعالى : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإِنَّ الله لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } (العنكبوت/69) .

قال : فبينما نحن كذلك إذ أقبل شاب حسن الوجه عليه ثياب بيض حسنة ، فعانق الصبي وسلَّم عليه . فأقبلتُ على الشاب وقلت له : أسألك بالذي حَسَّن خلقك مَن هذا الصبي ؟ فقال : أما تعرفه

؟ هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . فتركت الشاب وأقبلت على الصبي ، وقلت : أسألك بآبائك مَن هذا الشاب ؟ فقال : أما تعرفه ؟ هذا أخي الخضر ، ، يأتينا كلَّ يوم فيسلِّم علينا . فقلت : أسألك بحق آبائك لما أخبرتني بما تجوز المفاوز بلا زاد ؟ قال : بل أجوز بزاد ، وزادي فيها أربعة أشياء . قلت : وماهي ؟ قال : أرى الدنيا كلها بحذافيرها مملكة الله ، وأرى الخلق كلهم عبيد الله وإماؤه وعياله ، وأرى الاسباب والأرزاق بيد الله ، وأرى قضاء الله نافذاً في كل أرض الله . فقلت : نعم الزاد زادك يا زين العابدين ، وأنت تجوز بها مفاوز الآخرة ، فكيف مفاوز الدنيا ؟ (14)

وقصة مشابهة يرويها حماد بن حبيب الكوفي القطان فيقول :

انقطعت عن القافلة عند زبالة (15) فلما أجنَّني الليل أويت إلى شجرة عالية . فلما اختلط الظلام إذا أنا بشاب قد أقبل عليه أطمار بيض تفوح منه رائحة المسك . فأخفيت نفسي ما استطعت . فتهيأ للصلاة ، ثم وثب قائماً وهو يقول : يا من حاز كل شيء ملكوتاً ، وقهر كل شيء جبروتاً ، أولج قلبي فرح الإقبال عليك ، وألحقني بميدان المطيعين لك ، ثم دخل في الصلاة . فلما رأيته وقد هدأت أعضاؤه ، وسكنت حركاته ، قمت إلى الموضع الذي تهيأ فيه إلى الصلاة ، فإذا أنا بعين تنبع . فتهيأت للصلاة ، ثم قمت خلفه ، فإذا بمحراب كأنه مثل في ذلك الوقت فرأيته كلما مر بالآية التي فيها الوعد والوعيد يرددها بانتحاب وحنين . فلما أن تقشع الظلام وثب قائماً وهو يقول : يا من

قصده الضالون فأصابوه مرشداً ، وأَمَّه الخائفون فوجدوه معقلاً ، ولجأ إليه العابدون فوجدوه موئلاً .

متى راحة مَن نصب لغيرك بدنه ، ومتى فرح من قصد سواك بِنيِته ؟ إلهي قد تقشّع الظلام ولم أقض من خدمتك وطراً ، ولا من حياض مناجاتك صدراً ، صلِّ على محمد وآله وافعل بي أولى الأمرين بك يا أرحم الراحمين . فخفت أن يفوتني شخصه وأن يخفي علي أمره ، فتعلقت به فقلت : بالذي أسقط عنك هلاك التعب ، ومنحك شدة لذيذ الرهب ، إلاّ ما لحقتني منك جناح رحمة وكنف رقة ، فإني ضال . فقال : لو صدق توكلك ما كنت ضالاً ، ولكن اتبعني واقفُ أثري . فلما ان صار تحت الشجرة أخذ بيدي وتخيل لي أن الأرض تمتد من تحت قدمي ، فلما انفجر عمود الصبح قال لي : أبشر فهذه مكة ، فسمعت الضجة ورأيت الحجة ، فقلت له : بالذي ترجوه يوم الآزفة يوم الفاقة ، مَن أنت ؟ فقال : إذا أقسمت فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (16).

ألم أقل لك إنه كان ومضة نور وشلاَّل إيمان ، وقبساً من وهج الرسالة ؟..

كان الظلام يخيم على طرقات المدينة وقد أوى الناس إلى بيوتهم ، والسماء تمطر ورياح الشتاء الباردة تعصف .. فيقول : الزهري : رأيته (ع) يمشي وعلى ظهره دقيق . فقلت يابن رسول الله ، ما هذا ؟.

قال (ع) : أريد سفراً أعد له زاداً أحمله إلى موضع حريز .

فقال الزهري : فهذا غلامي يحمله عنك ، فأبى (ع) .

فقال الزهري : أنا أحمله عنك فأني ارفعك (وأجلُّك) عن حمله .

فقال علي بن الحسين (ع) : لكني لا أرفع نفسي (ولا أجل نفسي) عما ينجيني في سفري ، ويحسن ورودي على ما أرد عليه . وأضاف الإمام قائلا : أسألك بحق الله لما مضيت لحاجتك وتركتني . فانصرف عنه . فلما كان بعد أيام قال له يابن رسول الله لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً .

قال : بلى يا زهري !. ليس ما ظننت ، ولكنه الموت ، وله استعدّ ، وأضاف الإمام لبيان هدف حملـه تلك البضاعة في الليل إلى بيوت الفقراء : إنما الاستعداد للموت تجنب الحرام ، وبذل النفوس في الخيـر (17).

إن جذور شخصية الإمام زين العابدين تمتد في أفق معرفته بالله تعالى ، ويقينه باليوم الآخر ، ووعيه للسرعة الخاطفة التي تبتلع ساعات الليل والنهار من عمر البشر ، وتزاحم الواجبات عليه !.

حينما يسأله رجل كيف أصبحت يابن رسول الله ؟ يقول : أصبحت مطلوباً بثمان : الله يطلبني بالفرائض ، والنبي (ص) بالسنّة ، والعيال بالقوت ، والنفس بالشهوة ، والشيطان باتِّباعه ، والحافظان بصدق العمل ، وملك الموت بالروح ، والقبر بالجسد . فأنا بين هذه الخصال مطلوب (18).

إنه كان مثلاً رائعاً للآية الكريمة : { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } (آل عمران/191) .

لقد أحبَّ الله حتى فاضت على شفاهه روافد الحب في صورة ابتهالات ومناجاة سجَّل التاريخ جزءاً بسيطاً جدّاً منها في صحيفته المعروفة بـ (السجادية) .. فلنستمع معاً إلى هذه الرائعة التي تبهر الأبصار :

" فقد انقطعتْ إليك هِمَّتي ، وانصرفتْ نحوك رغبتي . فأنتَ لا غيرك مرادي ، ولك لا لسواك سهري وسُهادي ، ولقاؤك قرة عيني ، ووصلك مُنَى نفسي ، وإليك شوقي ، وفي محبتك وَلَهي ، وإلى هواك صبابتي ، ورضاك بُغيتي ، ورؤيتك حاجتي ، وجوارك طلبي ، وقربك غاية سؤلي ، وفي مناجاتك رَوحي وراحتي ، وعندك دواء علتي ، وشفاء غُلتي ، وبردُ لوعتي ، وكشفُ كربتي ، فكن أنيسي في وحشتي ، ومُقيل عثرتي ، وغافر زلتي ، وقابل توبتي ، ومجيب دعوتي ، ووليّ عصمتي ، ومغني فاقتي ، ولا تقطعني عنك ، ولا تبعدني منك ، يا نعيمي وجنتي ، ويا دنياي وآخرتي ، يا أرحم الراحمين " (19).

فـأيُّ قـلبٍ مفعم بالإيمان هـذا الذي يفيض بهذه الكلمات المضيئـة ؟!.. وأي فؤاد ملتهب بالشوق إلـى

الله ، متيم بحب الله ، يشع بهذه المناجاة ؟. إنّه قلب ذلك الإمام الذي كانت الصلاة أحب الأمور إليه . وكان الذكر شغله الشاغل والعبادة صبغة حياته !

فقد دخل على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان فاستعظم عبد الملك ما رأى من أثر السجود بين عينَي علي بن الحسين (ع) ، فقال : يا أبا محمد لقد بيَّن عليك الإجتهاد ، ولقد سبق لك من الله الحسنى ، وأنت بضعة من رسول الله (ص) قريب النسب وكيد السبب . وإنك لذو فضل عظيم على أهل بيتك وذوي عصرك ، ولقد أُوتيتَ من الفضل والعلم والدين والورع مالم يؤته أحد مثلك ولا قبلك ، إلاّ مَن مضى من سلفك .. وأقبل يُثني عليه ويطريه .. قال : فقال علي بن الحسين (ع) : " كلّما ذكرته ووصفته من فضل الله سبحانه وتأييده وتوفيقه . فأين شكرُه على ما أنعم يا أمير المؤمنين ؟. كان رسول الله (ص) يقف في الصلاة حتى تورّمت قدماه ، ويظمأ في الصيام حتى يُعصب فوه ، فقيل له : يا رسول الله ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيقول (ص) أفلا أكون عبداً شكوراً ؟. الحمد لله على ما أولى وأبلى ، وله الحمد في الآخرة والأولى . والله لو تقطعت أعضائي ، وسالت مقلتاي على صدري ، لن أقوم لله جل جلاله بشكر عَشر العشير من نعمة واحدة من جميع نعمه الَّتي لا يحصيها العادُّون ، ولا يبلغ حدّ نعمة منها على جميع حمد الحامدين ، لا والله أو يراني الله لا يشغلني شيء عن شكره وذكره ، في ليل ولا نهار ، ولا سر ولا

علانية . ولولا أن لأهلي عَلَيَّ حقاً ، ولسائر الناس من خاصهم وعامهم عَلَيَّ حقوقاً لا يسعني إلاّ القيام بها حسب الوسع والطاقة حتى أؤديها إليهم ، لَرميتُ بطرفي إلى السماء ، وبقلبي إلى الله ، ثم لم أرددهما حتى يقضي الله على نفسي وهو خير الحاكمين ".

وبكى (ع) وبكى عبد الملك وقال : شتان بين عبد طلب الآخرة وسعى لها سعيها ، وبين من طلب الدنيا من أين جاءته ، ماله في الآخرة من خلاق . ثم أقبل يسأله عن حاجاته وعما قصد له فشفّعه فيمن شفَّع ، ووصله بمال " (20) .

وعندما يراه طاوس في أخريات الليل يطوف بالبيت الحرام يرى منه عجباً حتى يشفق عليه فلنستمع إليه ، يروي قصته :

رأيته يطوف من العشاء إلى السَّحر ويتعبد ، فلمّا لم يَرَ أحداً رمق السماء بطرفه ، وقال :

" إلهي غارت نجوم سماواتك ، وهجعت عيون أنامك ، وأبوابُك مفتّحات للسائلين ، جئتك لتغفر لي وترحمني ، وتريني وجه جَدِّي محمد (ص) في عرصات القيامة " . ثم بكى وقال : " وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك ، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاكٌّ ، ولا بنكالك جاهلٌ ، ولا لعقوبتك متعرضٌ ، ولكن سوَّلت لي نفسي ، وأعانني على ذلك سترُك المرخَى به عَلَيَّ . فالآن من عذابك من يستنقذني ؟. وبحبل مَن أعتصم إنْ قطعتَ حبلك عني ؟. فواسوأتاه غداً من الوقوف

بين يَديك ، إذا قيل للمخفِّين جوزوا ، وللمثقَلين حُطُّوا . أمع المخفّين أجوز ؟ أم مع المثقلين أَحط ؟

ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب ، أما آن لي أن أستحي من ربِّي ؟! " .

ثم بكى وأنشأ يقول:

أتحرقنــي بالنار يــا غــاية الـمـــنى * فــأيـــن رجــائــي ثم ايـــن محبّـــتي

أتيــتُ بــأعـــمالٍ قبــاحٍ زَرِيَّــــــةٍ * وما فــي الـورى خلـق جنـــى كجنايتـي

ثم بكى وقال : " سبحانك تُعصَى كأنك لا ترى ، وتحلم كأنك لم تُعص تتودّد إلى خلقك بحسن

الصنيع كأن بك الحاجة إليهم ، وأنت يا سيدي الغني عنهم " .

ثم خر إلى الارض ساجداً . قال : فدنوتُ منه وشلتُ برأسه ووضعتُه على ركبتي وبكيتُ حتى

جرت دموعي على خده ، فاستوى جالساً وقال : " مَن الذي أشغلني عن ذكر ربِّي ؟ "

فقلتُ : أنا طاووس يابن رسول الله ، ما هذا الجزع والفزع ؟

ونحن يلزمنا أن نفعل هذا ونحن عاصون جانون ، أبوك الحسين بن علي وأُمك فاطمة الزهراء ،و

جدك رسول الله (ص) ؟! قال : فالتفت إليّ وقال :

" هيهات هيهات يا طاووس ، دع عني حديث أبي وأمي وجدي ، خلق الله الجنة لمن أطاعه

وأحسن ولو كان عبداً حبشيّاً ، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشيّاً . أما سمعتَ قوله تعالى

: { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسآءَلُونَ } (المؤمنون/101) ؟. والله لا ينفعك غداً إلاّ تقدمة تقدمها من عملٍ صالح " (21) .

ولأنه أحب الله فوّض إليه أمره وسلّم له أشد التسليم ، وهو (ع) يروي عن نفسه القصة التالية فيقول :

" مرضتُ مرضاً شديداً ، فقال لي أبي : ما تشتهي ؟ فقلتُ : أشتهي أنْ أكون ممَّن لا أقترح على الله ربِّي ما يدبِّره لي . فقال لي : أحسنتَ ، ضاهيتَ إبراهيم الخليل صلوات الله عليه حيث قال جبرئيل (22) : هل من حاجة ؟. فقال : لا أقترح علي ربِّي ، بل حسبي الله ونعم الوكيل " (23) .

وهكذا أحبه الله تعالى وأكرمه ورفع شأنه ، وأجرى علي يديه تقديره ، وألزم الناس ولايته .

والقصة التالية تعكس مدى حب الله سبحانه للإمام زين العابدين (ع) :

والقصة يرويها طائفة من عُبَّاد البصرة وفقهاءها وهم ثابت البناني ، وأيوب السجستاني ، وصالح المري ، وعتبة الغلام ، وحبيب الفارسي ، ومالك بن دينار .

وننقل فيما يلي نص ما جاء في هامش كتاب بحار الأنوار (ج 46 ، ص 50) عن هؤلاء الْعُبَّاد بالترتيب :

أولاً : ثابت البناني : من التابعين وقد ترجمه أبو نعيم في حلية الأولياء (ج 2 ، ص 318 إلى ص 333) فقال : ومنهم المتعبد الناحل ، المتهجد الذابل ، أبو محمد ثابت بن مسلم البناني ، وذكر أنه أسند عن غير واحد من الصحابة منهم : ابن عمر ، وابن الزبير ، وشداد وأنس وأكثر الرواية عنه . وروى عنه جماعة من التابعين منهم : عطاء بن أبي رياح ، وداود بن أبي هند ، وعلي بن زيد بن جدعان ، والأعمش ، وغيرهم .

ثانياً : أيوب السجستاني : من التابعين . قال أبو نعيم في حلية الأولياء ، وقد ترجمه في (ج3 من ص 3 إلى ص 13) : ومنهم فتى الفتيان ، سيد العبّاد والرهبان ، المنوَّر باليقين والإيمان . السجستاني أيوب بن كيسان . كان فقيهاً محجاجاً ، وناسكاً حجاجاً ، عن الخلق آيساً ، وبالحق آنساً .

أسند أيوب عن أنس بن مالك ، وعمرو بن سلمة الجرمي . ومن قدماء التابعين ، عن أبي عثمان الهندي ، وأبي رجاء العطاردي ، وأبي العالية ، والحسن ، وابن سيرين وأبي قلابة .

وذكره الأردبيلي في جامع الرواة (ج 1 ، ص 111) فقال : أيوب بن أبي تميمة ، كيسان السجستاني العنزي البصري ، كنيته أبو بكر مولى عمار بن ياسر ، وكان عمار مولى ، فهو مولى مولى . وكان يحلق شعره في كل سنة مرة ، فإذا طال فَرَق . مات بالطاعون بالبصرة سنة 131 .

ثالثاً : صالح المري : هو ابن بشير ، وصفه أبو نعيم في الحلية (ج 6 ، ص 165) بقوله : القارئ الدرِي ، والواعظ التقي ، أبو بشير صالح بن بشير المري ، صاحب قراءة وشجن ومخافة وحزن . يحرك الأخيار ، ويفرك الأشرار .

اسند عن الحسن ، وثابت ، وقتادة ، وبكر بن عبد الله المزني ، ومنصور بن زاذان وجعفر بن زيد ، ويزيد الرقاشي ، وميمون بن سياه ، وأبان بن أبي عياش ، ومحمد بن زياد ، وهشام بن حسان ، والجريري ، وقيس بن سعد ، وخليد بن حسان في آخَرِين .

رابعاً : عتبة الغلام : هو الحر الهمام ، المجلو من الظلام ، المكلوء بالشهادة والكلام ، قال عبيد الله بن محمد : عتبة الغلام هو عتبة بن أبان بن صمعة ، مات قبل أبيه . وسئل رباح القيسي عن سبب تسمية عتبة بالغلام فقال : كان نصفاً من الرجال ، ولكنّا كنّا نسميه الغلام لأنه كان في العبادة غلامَ رهِان ، استشهد وقتل في قرية الحباب في غزو الروم ، ترجمه مفصلاً أبو نعيم في الحلية (ج 6 ، ص 226 إلى 238) .

خامساً : حبيب الفارسي : قال أبو نعيم في الحلية (ج 6 ، ص 149) : أبو محمد الفارسي من ساكني البصرة ، كان صاحب المكرمات ، مُجاب الدعوات ، وكان سبب إقباله على الآجلة وانتقاله

عن العاجلة ، حضوره مجلس الحسن بن أبي الحسن ، فوقعت موعظته من قلبه .. وتصدق بأربعين ألفاً في

أربع دفعات .

سادساً : مالك بن دينار أبو يحيى ، وصفه أبو نعيم في الحلية بقوله : العارف النظَّار ، الخائف الجبَّار .. كان لشهوات الدنيا تاركاً ، وللنفس عند غلبتها مالكاً ، وقد أطال في ذكره (ج 2 ، من ص 357 إلى ص 389) .

استجابة دعائه (ع)

عن ثابت البناني قال : كنت حاجّاً وجماعةَ عُبَّاد البصرة مثل أيوب السجستاني وصالح المري وعتبة الغلام وحبيب الفارسي ومالك بن دينار . فلما ان دخلنا مكة رأينا الماء ضيقاً ، وقد اشتد بالناس العطش لقلة الغيث . ففزع إلينا أهل مكة والحجاج يسألونا أن نستسقي لهم ، فأتينا الكعبة وطفنا بها ، ثم سألنا الله خاضعين متضرعين بها ، فَمُنعنا الإجابة ، فبينما نحن كذلك إذا نحن بفتىً قد أقبل ، قد أكربته أحزانُه ، وأقلقته أشجانُه ، فطاف بالكعبة أشواطاً ، ثم أقبل علينا فقال : يا مالك بن دينار ، ويا ثابت البناني ، ويا أيوب السجستاني ، ويا صالح المري ، ويا عتبة الغلام ، ويا حبيب الفارسي ، ويا سعد ، ويا عمر ، ويا صالح الأعمى ، ويا رابعة ، ويا سعدانة ، ويا جعفر بن

سليمان ، فقلنا : لَبَّيك وسعدَيك يا فتى . فقال : أما فيكم أحد يحبه الرحمان ؟. فقلنا : يا فتى علينا الدعاء وعليه الإجابة . فقال : ابعدوا من الكعبة ، فلو كان فيكم أحد يحبه الرحمان لأجابه . ثم أتى الكعبة فخر ساجداً فسمعته يقول في سجوده : سيدي ، بحبك لي إلاّ سقيتهم الغيث ، قال : فما استتم الكلام حتى أتاهم الغيث كأفواه الْقُرَب ، فقلت يا فتى : من اين علمت أنه يحبك ؟ قال : لو لم يحبني لم يستزرني ، فلما استزارني علمتُ أنّه يحبني ، فسألتُه بحبه لي فأجابني ، ثم ولى عنّا وأنشأ يقول :

من عـرف الـرب فلم يُغـــــنـه * معرفـةُ الرب فـــذاك الشـــقـــي

مـــا ضرَّ في الطاعـة مـا نالـــــه * في طـاعـــة الله ومـــــاذا لقـــي

مـا صنـع الـعبـد بغـيـر الـتـقــى * والعـزُّ كـــلُّ العـــزِّ للمتَّـــقي

فقلت : يا أهل مكة من هذا الفتى ؟. قالوا : علي بن الحسين (ع) بن علي بن أبي طالب .

وعن المنهال بن عمرو في خبر قال : حججت فلقيت عليَّ بن الحسين (ع) ، فقال : ما فعل حرملة بن كاهل ؟. قلت : تركته حيّاً بالكوفة ؛ فرفع يديه ثمَّ قال (ع) : اللهمَّ أذِقْهُ حَرَّ الحديد ، اللهمَّ أذِقْهُ حَرَّ النار . فتوجّهت نحو المختار ، فإذا بقوم يركضون ويقولون البشارة أيّها الأمير ، قد أُخِذَ حرملةُ ، وقد كان توارى عنه ، فأمر بقطع يديه ورجليه وَحرْقه بالنار .

وكان زين العابدين (ع) يدعو في كلِّ يوم أن يريه الله قاتل أبيه مقتولاً ، فلمّا قتل المختارُ قَتَلَة الحسين صلوات الله وسلامه عليه بعث برأس عبيد الله بن زياد ورأس عمر بن سعد مع رسول من قِبَلِه إلى زين العابدين ، وقال لرسوله : إنّه يصلّي من اللّيل ، وإذا أصبح وصلّى صلاة الغداة هجع ، ثمَّ يقوم فيستاك ويؤتى بغدائه ، فإذا أتيت بابه فاسأل عنه ، فإذا قيل لك : إنَّ المائدة وضعت بين يديه فاستأذن عليه وضع الرأسين على مائدته ، وقل له : المختار يقرأ عليك السلام ويقول لك : يابن رسول الله ، قد بلّغك الله ثارك . ففعل الرَّسول ذلك : فلمّا رأى زين العابدين (ع) الرأسين على مائدته خرَّ ساجداً وقال :

" الحمد لله الّذي أجاب دعوتي ، وبلّغني ثاري من قتلة أبي ، ودعا للمختار وجزّاه خيراً " (24) .

وحينما نعرف جانباً من شخصية الإمام زين العابدين (ع) ومدى تفانيه في ذات الله عزَّ وجلَّ وذوبانه في تيار حبِّه سبحانه ، وخلوصه من شوائب المصلحة المادية ، نعرف – حينئذ – جانباً من حكمة الولاية ، وذلك التأكيد الشديد عليها في نصوص الإسلام . فمثل ولاية الإمام السجاد تصلح نفس الإنسان وتتسامى في معارج الكمال ، وإن ولاية الأنبياء والأوصياء تصبغ شخصية المجتمع المؤمن بصبغة الإيمان ، وتيسر له العمل بتعاليم أولياء الله تعالى ، والسعي وراء تمثيل شخصياتهم الإلهية ، كما أن تلك الولاية تسقي روضة حب الله في أفئدتهم ، وتصونها من الذبول ، لأن حب

أولياء الله يفيض من حب الله كما تفيض الروافد من نبعٍ زخَّار ، بل إن حب أولياء الله هو انبساط لحب الله ، وأمثلة له وشواهد عليه !. وكيف يمكن أن يدَّعي أحد أنه يحب الله ثم لا يحب من هام في حب الله حتى بلغ ما بلغه الإمام زين العابدين (ع) من العبادة والتهجد ؟!

أولم يقل ربُّنا العزيز : { قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله } (آل عمران/31) .

فلنغترف من نبع حب الله فيضاً ، وذلك بِحُبِّ أوليائه أكثر مما مضى ، حتى نطهِّر أفئدتنا من أهواء الدنيا ومن أدران حب أهلها اللئام .

---

(1) نهج البلاغة (المعجم المفهرس ص 68) .

(2) المصدر : (ص 70) .

(3) المصدر : (ص 70) .

(4) بحار الأنوار : (ج 27 ، ص 57) .

(5) المصدر : (ص 56) .

(6) المصدر : (ص 57) .

(7) أي باب الطاعة للنبي وأوصيائه المصدر : (ص 180)

(8) المصدر : (ص 180) .

(9) المصدر : (ص 201) .

(10) نفقت الدابة ماتت (القاموس) .

(11) بحار الأنوار : (ص 61 – 63) .

(12) سوف نذكر بعضاً منها في خاتمة الكتاب ..

(13) يعني ارفع رجلك – أو رحلك – عن المركوب ، واركب مطيتي حتى تدرك الحج ..

(14) قصة إبراهيم – بحار الأنوار : (3 / ج 36) .

(15) زبالة : اسم موضع بطريق مكة .

(16) المصدر : (ص 40 – 41) .

(17) المصدر : (ص 49) .

(18) في رحاب أئمة أهل البيت : (ج 3 ، ص 234) .

(19) مفاتيح الجنان : (ص 124) .

(20) بح : (ص 57) .

(21) قصته في المسجد الحرام مع طاووس .

(22) قال له ذلك عندما همّ الطغاة رميه في النار عبر المنجنيق .

(23) المصدر : (ص 67) .

(24) بحار الأنوار : (ج 46 ، ص 51 – 53) .

الفصل الثاني: ميـلاده وعصره (ع)

كان الإمام زين العابدين (ع) في قلب الأحداث السياسية التي ساهمت في تكوين الأمة الإسلامية ، ورَسْمِ ملامحها التاريخية ..

لقد ولد (سلام الله عليه) في بيت جدِّه علي أمير المؤمنين (ع) ، من نجله الكريم الإمام الحسين (ع) ، عندما كان الإمام يخوض صراعاً مريراً مع أعداء الإسلام المتستِّرين في الجمل وصِفين والنهروان ، وكان والده الحسين (ع) قائداً في جيش الإسلام – يومئذ – كما كان مضطلعاً مع والده بإدارة أمور المسلمين ..

ولا ريب أن تلك الأحداث الرهيبة التي لازالت أصداؤها تدوي في واقعنا حتى اليوم ، ساهمت في صنع شخصية الوليد الكريم الذي استقبله بيت الإمامة في عام (35) للهجرة الكريمة ، عندما كانت الأمة الإسلامية تعيش غلياناً انتهى بمقتل الخليفة الثالث ، وما أعبقه من فتنة بني أمية في المطالبة بدمه .

أُم السجاد (ع) :

جاء في كتب التاريخ أن والدة الإمام السجاد (ع) هي (شهر بانو) بنت آخر ملوك الفرس ، من سلسلة الساسانية (يزدجرد) .

وكانت الأمبراطورية الفارسية كأي نظام جاهلي آخر قائمٍ على الطبقية والظلم والعدوان ، فلما أشرق نور الإسلام تهاوت كما تتهاوى شجرة منخورة أمام إعصارٍ عنيف ، وانهزم الأمبراطور من بلد إلى آخر حتى قُتل غيلةً في خراسان ، وبقيت عائلته في تلك البلاد حتى فتحت على عهد عثمان في عام (32) وجيء بهم إلى المدينة المنورة ، فلما مثلوا أمام الخليفة الثالث وحضر كبار الأصحاب ، أشار الإمام أمير المؤمنين (ع) إلى الخليفة بإكرامهم ورغّبه في ذلك بذكر حديث الرسول (ص) : " أكرموا عزيزَ قومٍ ذَل ".

ولعل الحكمة في ذلك كانت استمالة الشعوب التي لم تزل تحترم قيادتها وكرماءها ، لكي لاتبقى بينهم وبين قبول الإسلام حواجز الحقد والضغينة .

فلما تريث الخليفة في ذلك قال الإمام أمير المؤمنين (ع) : " اعتقتُ منهم لوجه الله حقي وحق بني هاشم " .

وتبعـه في ذلك الأنصار والمهاجرون ، فلم ير الخليفة بدّاً من قبول الأمـر ، فأشـار الإمام أمير المؤمنيـن (ع) بأن تُترك كلُّ واحدةٍ لاختيار الزوج المناسب ، فاختارت إحدى بنات يزدجرد الحسين

(ع) ، بينما اختارت الثانية الحسن ، وقيل محمد بن أبي بكر . فحملت شهر بانو في تلك السنة . وفي منتصف شهر جمادي الأولى لعام ثلاث وثلاثين من الهجرة ولدت ابنها البكر ، وماتت وهي في نفاسها ، فتكفلته واحدة من أمهات الأولاد عند الإمام الحسين (ع) ، فنشأ زين العابدين في كنفها ، وكان يزعم الناس أنها أُمه بينما كانت مولاته (1).

وفي السابعة من عمره استُشهد جدُّه الإمام أمير المؤمنين (ع) في محراب مسجد الكوفة . وبعد أشهر عاد أهل البيت إلى المدينة حيث ترعرع علي بن الحسين (ع) في ربوعها المضوَّعة بعطر الرسول (ص)، فلما بلغ السابعة عشر اغتيل بالسم عمَّه الإمام الحسن المجتبى (ع) .

وعاش الإمام السجاد (ع) يمارس في ظلال والده الإمام الحسين (ع) دور الريادة في مواجهة الردة الجاهلية الأموية .

وبالرغم من قلة المعلومات التي تفصّل طبيعة هذه المواجهة المتسمة بالهدوء وربما السرّية ، فإن ما بقي لنا من خُطب الإمام الحسين (ع) ضد معاوية ، وكتبه النارية الموجهة إليه ، وما رافق عهد معاوية من انتفاضات بقيادة أصحاب الرسول الموالين لأهل بيته عليه وعليهم صلوات الله ، أقول : إن ما بقي لنا من ذلك يُعطينا صورة كافية للحالة السياسية التي عاشها الإمام السجاد أيام والده (ع) ، حينما كان في مقتبل العمر .

بعد عاشوراء :

ومهما كانت قوة الحركة السياسية في عهد معاوية ، فإنها كانت ناراً تحت رماد الهدوء السياسي الذي فرضه معاوية على الساحة بدهائه المعروف وبوسائله المختلفة من توزيع الأموال والمناصب ثمناً لسكوت الطامعين ، وتوزيع العسل المسموم على الأحرار . وقد اشتهر عنه القول : إن لله جنوداً من عسل ..

وهكذا كانت التيارات السياسية تنتظر بفارغ الصبر هلاك معاوية . ومن هنا أصبحت واقعة كربلاء صاعقاً فجَّر الثورات في آفاق العالم الإسلامي ، لأنها جاءت في الوقت المناسب بعد هلاك وريث أبي سفيان ، داهية العرب ، فافتتحت عصر الثورات المناهضة للجاهلية المقنَّعة .

فبعد شهادة السبط الشهيد (ع) انتفضت مدينة الرسول ، وخلعت يزيد بن معاوية ، وقام عبد الله بن

الزبير بمكة يطالب بالخلافة ، وثارت الكوفة بقيادة سليمان بن صرد ، ثم بقيادة المختار . وهكذا أصبحت الثورات والإنتفاضات صبغة الحياة السياسية في البلاد الإسلامية ، واسلوباً شاخصاً لمواجهة الطغيان والفساد . ولذلك فإننا نستطيع أن نسمي عهد الإمام السجاد (ع) ، خصوصاً في بداياته – منذ واقعة عاشوراء – عهد الثورات والإنتفاضات .

بيد أن الثورة بذاتها ليست هدفاً مقدساً ، وإنما الهدف المقدس هو تلك القيم المتسامية التي تحركها ، وإلاّ فان ضررها يكون أكبر من نفعها . أوليست الثورة بذاتها حالة تمرد على النظام وتعكِّر جو الأمن ، وتُثير الإضطراب ، وتُريق الدماء ؟ وبلى ، فهي – إذاً – حالة استثنائية لا يحمدها العقلاء ، ولكنها إنما تكتسب شرعيتها وقدسيتها من الغايات النبيلة التي تهدف إليها .

فلأنها تخرج الناس من ظلمات الركود والجهل والظلم إلى نور النشاط والعقل والعدالة ، أصبحت الثورة – بمعناها الشامل – صبغة حياة الأنبياء والأوصياء وعباد الله الابرار .

ولأنها تزيل عن قلوب الناس رين الغفلة واللامبالاة ، وعن تجمعاتهم سحابة الظلم والإعتداء ، وعن مجتمعهم كابوس الطغيان والفساد ، فقد أصبحت مسؤولية كلِّ حرٍّ أبيٍّ ، ووسامَ حقٍّ لكلِّ ذي كرامة وشرف ..

ومن هنا ركزت نصوص الوحي على هدف الثورات ضمن تعبير " القيام لله " وحيث قال ربُّنا سبحانه : { قُلْ اِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ } (سبأ/46) .

وقال عزَّ وجلَّ : { قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ } (النساء/135) .

وهكذا كانت الحالة الثورية التي عمّت آفاق البلاد الإسلامية ببركة استشهاد الإمام الحسين (ع) ، بحاجة إلى هوية وصبغة ، وروح ، وقيم ، لكي تتكرس في ضمير الأمة ، ولا تصبح كشعلة السعف

أو زوبعة الفنجان لا تلبث أن تتلاشى .. ولكي تتخذ مساراً رساليّاً مستقيماً ، ولا تصبح أداةً بيد كلِّ طامع أو متهوِّر كأمثال عبد الله بن الزبير وكغيره من الذين طفقوا يستفيدون منها بابشع صورة .

فهذا ابن الزبير يصعد المنبر بعد مقتل الإمام الحسين (ع) فيثني عليه ويلعن قاتله ويخلع يزيد . ولكن عندما أحس باستتباب الأمر له أظهر عداءً شديداً لآل البيت (ع) ، حتى أنه ترك الصلاة على جدهم النبي (ص) ، لكي لا يشمخوا بأنوفهم عند ذكره حسب قوله !

فمن أجل ألا تصبح الحالة الثورية مطية لكل من يهوى السلطة أو يبحث عن مجد مثل ابن الزبير ، جاء الإمام السجاد (ع) يعطي لتلك الحالة هويَّتها الرسالية ، وصبغتها الإلهية ، وروعتها التي تمثلت في قيم الوحي ، وسبيلها القويم الذي رسمته شريعة الله تعالى .

ولعل هذا أعظم دور قيادي قام به الإمام السجاد (ع) . ولم يكن هذا الدور نابعاً من حالة مزاجية عند الإمام (ع) أو لأنه شاهدَ مثلاً وقائع الطف الفظيعة ، فاصطبغت شخصيته بها . ولم يملك إلاّ البكاء والتفجّع والتبتّل والضراعة .

أجل ، إن تلك الحادثة كان لها أثرها البالغ في شخصيته الكريمة ، ولكن الإمام المعصوم (ع) يقوم بواجبه الإلهي ، وليس بما تمليه حالته النفسية . والشاهد على ذلك أن الإمام زين العابدين (ع) ، الذي اصطبغت شخصيته الكريمة بالتهجد والبكاء ، حمل رسالة عاشوراء بعد شهادة والده ، هو

وعمّته عقيلة الهاشميين زينب (ع) . وما أدراك ما رسالة عاشوراء !. إنها رسالة الجرح الثائر ، والدم المنتصر ، والألم المتمرد ، والإنتفاضة التي لا تهدأ . أَوَما سمعت خطبته اللاهبة في أهل الكوفة بعد ثلاثة أيام من فاجعة الطف كيف أثارت فيهم دفائن العطف ، ونفضت عن أفئدتهم غبار الرهبة والتردد ، فقالوا له : مرنا بأمرك فإنّا مطيعون لأمرك ، لنأخذن يزيد ونتبرأ ممن ظلمك وظلمنا .

ولكنه قال لهم : " مسألتي ألا تكونوا لنا ولا علينا " .

وها نحن نستمع معاً إلى فقرات من تلك الخطبة الثائرة :

أومأ إلى الناس فسكتوا ، فحمد الله وصلَّى على النبيِّ ، ثم قال :

" أيها الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني أُعرِّفه بنفسي . أنا عليُّ بن الحسين بن علي ، أنا ابن المذبوح بشط الفرات ، أنا ابن من هُتك حريمه ، وانتُهب ماله ، وسُلب نعيمه . فبأية عين تنظرون بها رسول الله (ص) إذا قال لكم : قتلتم عترتي ، وهتكتم حرمي ، فلستم من أمتي " ثم بكى (ع) (2) .

وعندما أُدخل أسيراً على ابن زياد الطاغية الذي زعم أنه انتصر على الخط الرسالي وإلى الأبد ، تحدَّاه الإمام (ع) وقال له :

" سوف نَقف وتَقفون ، ونُسأل وتُسألون ، فأيّ جواب تردُّون ، وبخصام جدِّنا إلى النار تُقادون "

. (3)

فلما همّ ابن زياد بقتله قال له الإمام (ع) :

" أأنت تهددني بالقتل ؟. أما علمتَ أنّ القتل لنا عادة ، وكرامتُنا من الله الشهادة " ؟.

وكان موقفه من الطاغية يزيد ، ذلك المجرم الذي لم يدع جريمة شنيعة إلاّ وارتكبها في سني حكمه القصيرة ، كان موقفه قمة في التحدِّي ومثلاً أعلى في الجهاد بالكلمة الرافضة .

ومرة أخرى حينما نال خطيب يزيد في الجامع الأموي من آل بيت الرسول تصدَّى له الإمام السجاد (ع) قائلاً : " ويلك يا هذ الخاطب ، اشتريت مَرضاة المخلوق بسخط الخالق ، فتبوَّأ مقعدك من النار " .

ثم التفت إلى يزيد واستأذنه بصعود المنبر ، فلم يجد يزيد بدّاً من ذلك فلما تشرف به المنبر ألقى تلك الخطبة البليغة التي لايزال صداها يدوّي في الآفاق إلى اليوم .. وإلى أبد الآبدين .

وحينما هدم طاغية العراق الحجاج بن يوسف الثقفي الكعبة تصدَّى له الإمام (ع) وقال :

" يا حجـاج ، عمدت إلى بناء إبراهيم وإسماعيل فألقيته في الطريق وانتهبته ، كأنك ترى أنّه تـراث لك . إصعد المنبر وانشد الناسَ أن لايبقى أحد منهم أخذ منه شيئاً إلاّ ردَّه " (4) .

وهكذا كانت سجية الإمام الشجاعة ، ولكن الظروف التي عاشها لم تكن تنقصها الثورة والشجاعة ، لأن واقعة الطف قد شحنت ضمير الأمة بالشجاعة بِما يكفيها لقرون متمادية ، وربما إلى الأبد . إنما كانت بحاجة إلى صبغة إيمانية تسمو بالثورة إلى أهدافها القيّمة ، وهكذا اتَّجه الإمام (ع) إليها .

فزعم السذج من الناس أن ذلك كان مزاجاً شخصيّاً . كما زعموا في مثل ذلك في الأنبياء . فمنهم من قال : إن تضحية إبراهيـم وصبر نوح ، ووحدة موسى وزهد عيسى وخُلق محمد عليهم جميعاً صلوات اللـه ، وسائر الصفات المتميزة لكل نبيٍّ من رُسل الله (ع) إنما كانت سمات شخصياتهم ، وحالاتهم المزاجية ، ناسيـن أن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته ، وأنه لا يجعل رسالته إلاّ حيث تقتضي حكمتـه . وأن تلك الصفات التي تجلَّت بهم كانت ضرورية للظروف التي عاشوها والبشر الذين تعاملوا معهم . حتى ولو افترضنا جدلاً أن نبيّاً وُضِعَ في مقام نبيٍّ آخر لتبنّى سلوكه وعمل بمنهاجه ، بلا اختلاف قليل أو كثير .

وكالأنبياء يكون الأئمة ، فلكل واحد منهم صحيفة يعمل بها ، وقد كانت مرسومة ضمن السياق التاريخي الذي عاشه . وحسب تلك الصحيفة الإلهية عمل الإمام السجاد (ع) . الذي كانت حياته قمة في العبـادة والضراعة ، وبثَّ روح الإيمان في المجتمع ، وتربية رجال متميزين في الزهد والتهجد ، من أمثـال : الزهري ، وسعيد بن جبير ، وعمر بن عبد الله السبيعي ، وآخرين ..

وهكذا رسمت صحيفة السجاد (ع) منهاج إمامته فيما يبدو في التركيز على الجانب الروحي ، على أنه كان في طليعة مهامِّ سائر الأئمة (ع) ، إلاّ أن الحاجة إليه كان في عهد الإمام زين العابدين (ع) أشد ، ولذلك كان التركيز عليه أعظم . ولكن السؤال : كيف اضطلع الإمام بهذه المهمة ؟. وأي منهاج اتَّبعه لبلوغ هذا الهدف العظيم ؟

منهاج الإمام (ع) في التربية الروحية :

ممَّا لاشك فيه أن أئمة الهدى هم مشاعل الحق للأجيال في كل عصر ومصر ، ولكن لأن الظروف مختلفة من جيل لآخر ، ومن مصر لمصر ثان ، ولأن الله قد ختم بالمصطفى رسالاته ، وبأوصيائه خلفاءه المعصومين ، فإن حكمته اقتضت أن تكون سيرة كل واحد منهم متميزة بهدى ومنهاج ، ليكون مجمل سيرهم المتنوعة ذخيرة غنية يرجع الناس إليها ليأخذوا منها ما يتناسب وظروفهم الخاصة ..

وكانت سيرة الإمام علي بن الحسين (ع) الإيمانية هي المنهاج المتناسب كليّاً وظروف مشابهة لظروفنا في بعض البلاد حيث حبانا الله سبحانه بحالة ثورية تحتاج إلى المزيد من الروح الإيمانية حتى لاتخرج الحركة عن مسارها الديني ، ولا تفسد السياسة ومصالحها وحتمياتها النقاء الإيماني الذي يحتاجه العاملون في سبيل الله .

فماذا كانت سيرته ، وماهو برنامجه ؟

أولاً : كان عباد الله المخلصون دعاة إلى الله بسلوكهم قبل أن يكونوا دعاة بألسنتهم ، فما أمروا الناس بشيء إلاّ وسبقوهم إليه .

وكانت حياة الإمام السجاد (ع) لوحة إيمانية نقية ، وقد تحدثنا عنها في فصل آخر . وقال عنه جابر بن عبد الله الأنصاري الصحابي الشهير : ما رأيت في أولاد الأنبياء شخصاً كعلي بن الحسين (ع) .

ثانياً : تربية جيل من العلماء الربانيين الذين ربوا بدورهم علماء وثائرين وعبّاداً صالحين . وهكذا تماوجت تعاليم الإمام عبر النفوس الزكية في حلقات مترامية كالصخرة العظيمة تُلقى في بحر واسع ..

وكان في هؤلاء الرجال العرب والموالي ،ولكلٍّ قصة وتاريخ . فَدَعْنا نتزود من عبق سيرة حواري الإمام (ع) الذين كان أكثرهم من التابعين :

ألف : كان سعيد بن جبير من أولئك التابعين الذين اقتبس من الإمام زين العابدين (ع) روح الإيمان .. كان مثلاً في العبادة والإجتهاد كان يسمى بـ (بصير العلماء) ويقرأ القرآن في ركعتين ، وبلغ من علمه أنه اشتهر بين العلماء أنه ما على الأرض أحد إلاّ وهو محتاج إلى علمه (5) .

واستشهد سعيد على يد طاغية العراق الحجاج . ويقول الإمام الصادق (ع) :

" إن سعيد بن جبير كان يأتم بعلي بن الحسين ، فكان علي يثني عليه . وما كان سبب قتل الحجاج له إلاّ على هذا الأمر ، وكان مستقيماً " (6) .

ومن خلال حوار ساخن جرى بينه وبين جزار بني أمية الزنيم نعرف مدى استقامة هذا العالم الرباني .

ذكر أنه لما دخل على الحجاج بن يوسف قال له : أنت شقي بن كسير .

قال : أُمي كانت أعرف بي ، سمتني سعيد بن جبير .

وقيل إنه سأله كيف يفضل أن يقتله ؟ قال : اختر لنفسك ، قال وكيف ذلك ؟. قال : لأنه لاتقتلني بقتلة إلاّ وأقتلك بها يوم القيامة .

باء : وكان عمرو بن عبد الله السبيعي الهمداني الذي يكنى بـ (أبي إسحاق) من ثقاة الإمام السجاد (ع) وبلغ من عبادته أن قيل عنه لم يكن في زمانه أعبد منه ، حيث كان يختم القرآن في كل ليلة . وقد صلى اربعين سنة صلاة الفجر بوضوء صلاة العتمة ، وكان محدثاً لا أوثق منه في الرواية عند الخاص والعام (7) .

جيم : وكان الزهري عاملاً في بلاط الأمويين ، فعاقب رجلاً فمات في العقوبة ، فارتاع لذلك فخرج على وجهه هائماً ، واعتكف في غار تسع سنين ، فرآه الإمام السجاد (ع) وهو في طريقه إلى الحج ، فقال له :

" إني أخاف عليك من قنوطك مالا أخاف عليك من ذنبك . فابعث بِدِيَةٍ مسلّمة إلى أهله ، واخرج إلى أهلك ومعالم دينك " .

فقال له : فرّجتَ عني يا سيدي ، الله أعلم حيث يجعل رسالته . ورجع إلى بيته ، ولزم علي بن الحسين (ع) . وكان يعد من أصحابه . ولذلك قال له بعض بني مروان : يا زهري . ما فعل نبيك ، يعني علي بن الحسين (8) .

ومن هذه الرواية نعرف كيف كان الله يهدي الناس بالإمام حتى يصبح عامل بني أمية من كبار العلماء المعروفين عند كل الفرق الإسلامية كالزهري .

دال : وكان سعيد بن المسيب بن حزن من كبار التابعين الذين ربَّاهم أمير المؤمنين (ع) ، والتزم خط آل البيت (ع) حتى كان من صفوة أصحاب الإمام السجّاد (ع) . وعنه قال : " سعيد بن المسيّب أعلم الناس بما تقدم من الآثار " (9) .

وقد قال رجل لسعيد يوماً : ما رأيت رجلاً أورع من فلان (وذكر اسم رجل من الناس) فقال له سعيد : فهل رأيت علي بن الحسين ؟. قال : لا ، قال سعيد : ما رأيتُ رجلاً أورع منه (10) .

ومثل هؤلاء طائفة كبيرة من كبار علماء الإسلام الذين أخذوا عن الإمام الزهد والتقوى ، والتفسير والحكمة والفقه ، حتى قال الشيخ المفيد : إنه روى عنه الفقهاء من العلوم مالا يحصى كثرة ، وحفظ عنه من المواعظ والأدعية وفضائل القرآن والحلال والحرام والمغازي والأيام ماهو مشهور بين العلماء .. وقال ابن شهر اشوب : قلَّما يوجد كتاب زهد وموعظة لم يذكر فيه : قال علي بن الحسين ، أو قال زين العابدين (ع) (11) .

وكان شديد الإحترام لطلبة العلوم الذين كانوا يتوافدون عليه في المدينة من أقطار العالم الإسلامي ، ويرى أنهم وصية رسول الله (ص) .. وكان العلماء يستلهمون من سلوكه الهدى والورع قبل أن يتلقوا من منطقه العلم والمعرفة ، ومن لايستلهم نور الله من تلك الطلعة الربانية ، من العين التي تفيض من خشيـة الله ، والجبهة التي عليها ثفنات من أثر السجود ، من ذلك اللسان الذي لايني يذكر الله عزَّ وجلَّ .. وبالتالي من تلك السيرة التي يشع منها نور الله تبارك وتعالى .

يذكر عبد الله بن الحسن فيقول : كانت أمي فاطمة بنت الحسين تأمرني أن أجلس إلى خالي علي بن الحسين (ع) . فما جلست إليه قط إلاّ قمت بخير قد أفدته ، إما خشية لله تَحدث في قلبي لما أرى من خشيته لله ، أو علم قد استفدته منه (12) .

وكانت الفتوحات الإسلامية تطوي كل يوم بلداً جديداً ، وتضم إلى الجسد الإسلامي عضواً جدياً ، ولكنها كانت بحاجة إلى زخم إيماني يصهر مختلف الثقافات والتقاليد والمصالح في بوتقة الأُمة الواحدة .

وقد تصدى الإمام زين العابدين (ع) وأصحابه وأنصاره لهذه المسؤولية وبسبل شتى . فقد كان شديد الإحترام للموالي ، وهم المنتمون إلى سائر الشعوب التي دخلت في الإسلام ، بعد فتح البلاد لها ، ولمّا تبلغ من المعارف الإلهية نصيباً كافياً .

وكان كثير من الموالي من خيرة أصحاب الإمام (ع) . كما كان الإمام يتبع منهجاً فريداً في زرع القيم الإلهية في أفئدة ثلة مختارة منهم .. حيث كان يشتري العبيد ويتعامل معهم بأفضل طريقة ثم يُعتقهم ويزوِّدهم بما يوفر لهم الحياة الكريمة ، فيكون كل واحد منهم ركيزة إعلامية بين بني قومه .. ولنقرأ معاً أخلاق الإمام في تعامله مع مواليه قبل أن نعرف كيف كان يعتقهم ، فإن تلك الأخلاق الحسنة كانت مدرسة عملية لهم إلى جانب التوجيه المباشر .

روي عن عبد الرزاق (أحد الرواة) أنه قال : جعَلت جارية لعلي بن الحسين (ع) تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة ، فسقط الإبريق من يد الجارية على وجهه فشجّه . فرفع رأسه إليها فقالت له الجارية : إنّ الله يقول : { وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ } (آل عمران/134) قال : كظمت غيظي ، قالت : { وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ } (آل عمران/134) قال لها : عفا الله عنك ، قالت : { وَالله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } ، (آل عمران/134) قال : اذهبي فأنت حرّة لوجه الله عزَّ وجلَّ (13) .

هكـذا كان يتعامل مع الرقيق الذين اعتبرهم بعض الناس ذلك اليوم ان لهم طبيعة غير طبيعة الإنسان ، فكيف لا يؤثر فيهم ذلك الخلق الرفيع ؟.

ويروي بعضهم القصة التالية التي تعكس مستوىً رفيعاً من الصفح والسماحة والإيثار ، تقول الرواية :

كان عنده (ع) قوم أضياف ، فاستعجل خادماً له بشواءٍ كان في التنور ، فأقبل به الخادم مسرعاً فسقط السفود منه على رأس بُنَيٍّ لعلي بن الحسين تحت الدرجة فأصاب رأسه فقتله ، فقال عليٌّ للغلام وقد تحير الغلام واضطرب : " أنتَ حرٌّ ، فإنك لم تعتمده " ، وأخذ في جهاز ابنه ودفنه . (14)

وكان له مولى يتولّى عمارة ضيعة له، فجاء فأصاب فيها فساداً وتضييعاً كثيراً. فغاظه ما رأى من ذلك وغمّه ، فقرع المولى بسوطٍ كان في يده وندمَ على ذلك ، فلما انصرف إلى منزله أرسل في طلب المولى فجاء فوجده عارياً والسوط بين يديه ، فظنّ أنّه يريد عقوبته ، فاشتد خوفه ، فقال له علي بن الحسين :

" قد كان مني إليك مالم يتقدَّم مني مثلُه ، وكانت هفوة وزلَّة ، خذ ذلك السوط واقتصَّ مني " .

فقال : يا مولاي والله إن ظننت إلاّ أنّك تريد عقوبتي ، وأنا مستحق للعقوبة . فكيف اقتصُّ منك ؟! قال : " ويحك اقتصّ " ؟ قال : معاذ الله أنتَ في حلٍّ وسعة ، فكرَّر عليه ذلك مراراً والمولى يتعاظم قوله ويجلله ، فلما لم يره يقتص قال له : " أمّا إذا أبيتَ فالضيعة صدقة عليك " (15) .

هذه نماذج من الخلق الكريم الذي اتّسَم به سلوك الإمام (ع) مع الموالي . وقد كان أسلوب عتق الإمام لهم متميزاً يرويه التاريخ بجلال وإعجاب . فقد روى ابن طاووس في كتاب شهر رمضان المعروف بالإقبال ، بسنده عن الإمام الصادق (ع) أنه قال : كان علي بن الحسين (ع) إذا دخل شهر رمضان لا يضرب عبداً له ، ولا أَمَة . وكان إذا أذنب العبد والأمة يكتب عنده أذنب فلان ، أذنبت فلانة يوم كذا وكذا، ولم يعاقبه . فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان دعاهم وجمعهم حوله ، ثم أظهر الكتاب ثم قال : يا فلان فعلت كذا وكذا ولم أؤذك أتذكر ذلك ؟ فيقول بلى يابن رسول الله

. حتى يأتي على أخرهم ويقررهم جميعاً ثم يقوم وسطهم ويقول : ارفعوا أصواتكم وقولوا : يا علي بن الحسين إن ربك قد أحصى عليك كلَّ ما عملت كما أحصيت علينا ولديه كتاب ينطق عليك بالحق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها وتجد كلَّ ما عملت لديه حاضراً ، فاعف واصفح يعف عنك المليك ويصفح ، فإنه يقول : وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، وهو ينادي بذلك على نفسه ويلقنهم وينادون معه وهو واقف بينهم يبكي ويقول :

" ربَّنا إنك أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا ، وقد عفونا عمن ظلمنا كما أمرت ، فاعف عنَّا فإنك أولى بذلك منَّا ومن المأمورين . إلهي كرمت فأكرمني إذ كنت من سؤالك وجدت بالمعروف فاخلطني بأهل نوالك يا كريم " .

ثم يقبل عليهم فيقول قد عفوت عنكم ، فهل عفوتم عني ما كان مني إليكم من سوء ملكة فإني مليك سوء لئيم ظالم مملوك لمليك كريم جواد عادل محسن متفضل ؟. فيقولون : قد عفونا عنك يا سيدنا ، وما أسأت . فيقول لهم قولوا : اللهم اعف عن علي بن الحسين كما عفا عنَّا وأعتقه من النار كما أعتق رقابنا من الرق . فيقولون ذلك ، فيقول : اللهم آمين ربَّ العالمين ، اذهبوا فقد عفوت عنكم وأعتقت رقابكم رجاء للعفو عني وعتق رقبتي . فإذا كان يوم الفطر أجازهم بجوائز تصونهم وتغنيهم عما في أيدي الناس . وما من سنة إلاّ وكان يعتق فيها في آخر ليلة من شهر رمضان ما

بين العشرين نفساً إلى أقل أو أكثر . وكان يقول : إن لله تعالى في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار سبعين ألف عتيق من النار ، كُلاً قد استوجب النار . فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق فيها مثلما أعتق في جميعه . وإني لأحب أن يراني الله وقد أعتقت رقاباً في ملكي في دار الدنيا ، رجاء أن يعتق رقبتي من النار . وما استخدم خادماً فوق حول . وكان إذا ملك عبداً في أول السنة أو في وسط السنة ، إذا كان ليلة الفطر أعتق واستبدل سواهم في الحول الثاني ثم أعتقوا كذلك . ولقد كان يشتري السودان وما به إليهم من حاجة ، يأتي بهم عرفات فيسد بهم تلك الْفُرج فإذا أفاض أمر بعتق رقابهم وجوائز لهم من المال.

---

(1) اعتمدنا في بعض ما ذكرنا على رواية مأثورة عن الإمام الرضا (ع) في بحار الأنوار (ج 46 ، ص 8) حيث ذكر ان حادثة أسر بنات يزدجرد كانت في عهد عثمان خلافاً لبعض الروايات التي ترى أنها وقعت في عهد عمر ، وهي بعيدة عن السياق التاريخي لمجمل الأحداث كفتح خراسان وتاريخ ولادة الإمام زين العابدين وما أشبه ..

(2) ناسخ التواريخ : (ج 2 ، ص 140) .

(3) المصدر : (ص 141) .

(4) عوالم العلوم : (ج 18 ، ص 179) .

(5) المصدر : (ص 280) .

(6) المصدر : (ص 182) .

(7) عوالم العلوم : (ج 18 ، ص 281) .

(8) المصدر : (ص 282) .

(9) بحار الأنوار : (ج 46 ، ص 133) .

(10) عوالم العلوم (ج 18 ، ص 283) .

(11) في رحاب أئمة أهل البيت : (ج 3 ، ص 196) .

(12) المصدر : (ص 196) .

(13) المصدر : (ص 198) .

(14) المصدر : (ص 199) .

(15) المصدر .

الفصل الثالث: دور الإمام (ع) في الإعلام الرسالي

الإعلام الرسالي هو الجهر بالقيم التي يدعو إليها الوحي . ولعل الكلمة المرادفة له في المنطق الإسلامي " الأذان " . وإذا كانت الدعوة إلى الله هي الركيزة الأولى لرسالات الله ، فإن الإعلام جانب أساسي منها .

ولقد كانت واقعة الطف الرهيبة الفجيعة واحدةً من أعظم الإثارات الإعلامية . أولم يقل السبط الشهيد أنا قتيل العبرة ؟. أولم يتواتر عن أئمة أهل البيت (ع) فضلُ البكاء على الحسين (ع) وزيارة قبره ، والدعاء تحت قبته ؟.

وهذا الدور الإعلامي الذي كان الهدف من استشهاد الإمام الحسين (ع) اضطلع به الإمام زين العابدين (ع) ، ومعه البقية العائدة من كربلاء ، وبالذات عقيلة الهاشميين زينب الكبرى (ع) .

وبقي الإمام (ع) خمساً وثلاثين سنة قائماً بهذا الدور حتى رسَّخ في ضمير الأمة قواعدَ الإعلام الحسيني المبارك على النحو التالي :

ألف : كان أول وأعظم هدف لوسائل الإعلام الحسيني ، إظهار الجانب المأساوي لواقعة الطف ، لتبقى راسخة في ضمير الأجيال المتصاعدة ، ولتكون شعلة متقدة في أفئدة المؤمنين ، تستثير فيهم

حوافز الخير والفضيلة ، وتدعوهم إلى الإجتهاد والإيثار ، وليقولوا على مدى العصور : يا ليتنا كنَّا معك فنفوز فوزاً عظيماً ، وليكونوا أبداً جنود الحق المتفانين في سبيل الله لكي لا تتكرر فاجعة الطف مرة أخرى ؛ أو ليكونوا . إذا وقعت مشاركين فيها بسهم واق ، ومدافعين عن الحق بكل قواهم .

ومن هنا نجد الإمام زين العابدين (ع) واحداً من البكَّائين الخمسة في عداد آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه .

لقد بقي باكياً بعد واقعة الطف ثلاثاً وثلاثين عاماً ، ما وُضع أمامه طعام إلاّ وخنقته العبرة وقال : لقد قتل ابن بنت رسول الله جائعاً ، فإذا جيء إليه بشراب انهالت دموعه فيه وقال : لقد قتل ابن بنت رسول الله عطشاناً . وإذا مرّ على جزّار استوقفه وسأله : هل سقى الشاة ماءً ، ثم طفق يبكي ويقول : لقد قتلوا سبط رسول الله ظامئاً على شط الفرات .

وقد ضج لبكائه مواليه وأهل بيته . قال له أحد مواليه مرة : جُعلت فداك يابن رسول الله ، إني أخاف أن تكون من الهالكين ، قال : إنما أشكو حزني إلى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون . إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلاّ خنقتني العبرة (1) .

باء : ولم يكن البُكاء الرسالة الوحيدة التي حملها الإمام زين العابدين (ع) إلى التاريخ ، فقد كانت رسالة الكلمة الثائرة هي المشكاة الصافية التي تشع من خلالها رسالة الكلمة . فمنذ الأيام الأولى لملحمة كربلاء عملت كلماتُ آل البيت (ع) وفي طليعتهم الإمام السجاد والصديقة زينب الكبرى (ع) في هدم جدار الصمت والتردد والخوف ، في الكوفة ، وفي الشام ، ثم في المدينة المنورة .

وحينما فرّق عامل يزيد " الأشدق " أهل البيت في البلاد الإسلامية خشية انتفاضة أهل المدينة حسب بعض الروايات التاريخية ، رُفِعَ لظُلامة الحسين (ع) في كل حاضرة منبر وجهاز إعلامي مقتدر .

ومن أشهر خطب الإمام (ع) تلك الرائعة التي أوردها في مسجد الشام ، والتي تحتوي على منهاج المبنر الحسيني الذي لو اتَّبعناه ، لكان أبلغ أثراً وأنفذ في أفئدة الناس . وها نحن نتدبر في مفردات هذا المنهج قبل أن نستوحي معاً نص الخطاب :

ألف : حدد الإمام أهداف المنبر إذ قال للخاطب الذي سبقه إلى المنبر : اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق ، فتبوَّأ مقعدك من النار .. وتوجه إلى يزيد وقال له : أتأذن أن أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلام فيه لله رضاً ولهؤلاء الجلساء نفع وثواب .

إذاً لابد أن تكون توجيهات الخطيب خالصة لوجه الله ، وأن يبحث عما يرضي الله ، حتى ولو أسخط الطغاة ، وأن ينطق بما ينفع الناس لا بما يضرهم .

باء : ثم بدأ الحديث بذكر الله سبحانه ، وحذَّر الناس عقابه ، وذكَّرهم بالموت والفناء ، ولا أبلغ من الموت موعظة ولا من الفناء رادعاً .

وجاء في بعض الروايات أن الناس قد أجهشوا بالبكاء عندما أكمل الإمام (ع) حديثه عن الآخرة ، مما جعل قلوبهم خاشعة تستقبل ما بيَّنه بعدئذ من البصائر السياسية .

جيم : وبيَّن الإمام (ع) خطه السياسي الأبلج الذي ينتهي إلى سيد المرسلين محمد وأهل بيته المعصومين (صلَّى الله عليه وعليهم اجمعين) ، وأسهب في بيان صفاتهم التي هي المثل الأعلى في اليقين والإستقامة والجهاد .

دال : وأشهر الإمام (ع) ظُلامة السبط الشهيد ، وحملها راية حمراء تدعو الضمائر الحرة إلى الجهاد من أجل الله وفي سبيل نصرة المظلومين .. وهذه هي أشد محاور المنبر الحسيني : إثارةً للعواطف وتهييجا لكوامن الحزن والأسى .

هاء : وبعد أن أمر يزيد بأن يقطع عليه المؤذن حديثه لم يترك الإمام (ع) المنبر كما كان معهوداً ، وإنما استوقفه عند الشهادة الثانية وحمّل يزيد مسؤولية قتل والده ، مما يعني – في لغة

العصر – وضع النقاط على الحروف . فلا يكفي للخطيب الحسيني أن يشير من بعيد إلى الحقائق السياسية ، بل لابد أن يصرّح بها بوضوح حتى يتبصر الناس وتتم الحجة عليهم .

وهكذا استطاع الإمام السجاد (ع) عبر هذا المنهاج الرائع أن يزلزل عرش يزيد زلزالاً حتى تنصَّل من جريمته النكراء ، وتوجه إلى الجماهير الغاضبة التي كادت تبتلعه قائلاً : أيها الناس ، أتظنون أني قتلت الحسين ، فلعن الله مَن قتله عبيد الله بن زياد عاملي بالبصرة (2) .

اما خطاب الإمام (ع) الذي ينبغي أن يُتخذ مثلاً للخطَب الحسينية ، فهو التالي :

" أيها الناس أحذركم الدنيا وما فيها ، فإنها دار زوال ، قد أفنت القرون الماضية ، وهم كانوا أكثر منكم مالاً ، وأطول أعماراً . وقد أكل التراب جسومهم ، وغيَّر أحوالهم . أفتطمعون بعدهم ، هيهات هيهات ، فلابد من اللحوق والملتقى . فتدبَّروا ما مضى من عمركم وما بقي ، فافعلوا فيه ما سوف يلتقي عليكم بالأعمال الصالحة قبل انقضاء الأجل وفروغ الأمل ، فعن قريب تؤخذون من القصور إلى القبور ، وبأفعالكم تحاسبون . فكم – والله – من فاجرٍ قد استكملت عليه الحسرات ، وكم من عزيز قد وقع في مهالك الهلكات ، حيث لا ينفع الندم ، ولا يُفات من ظَلم .. ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربُّك أحداً (3) .

قالوا : فضج الناس بالبكاء لبالغ أثر مواعظه في أنفسهم ثم قال :

" أيها الناس ، أُعطينا ستّاً وفُضِّلنا بسبع :

أُعطينا العلم ، والحلم ، والسماحة ، والفصاحة ، والشجاعة ، والمحبة في قلوب المؤمنين .

وفُضِّلنا بأن منَّا النبيَّ المختار محمداً ، ومنّا الصدّيق ، ومنّا الطيار ، ومنّا أسد الله وأسد رسوله ، ومنّا سبطا هذه الأمة .

مَن عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي .

أيها الناس ! أنا ابن مكة ومنى ، أنا ابن زمزم والصفا ، أنا ابن مَن حَمل الرُّكن بأطراف الرداء ، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى ، أنا ابن خير من انتعل واحتفى ، أنا ابن خير من طاف وسعى ، أنا ابن خير من حجَّ ولبَّى ، أنا ابن من حُمل على الْبُراق في الهواء ، أنا ابن من أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، أنا ابن من بلغ به جبرئيل إلى سدرة المنتهى ، أنا ابن من دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، أنا ابن من صلَّى بملائكة السماء ، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى ، أنا ابن محمد المصطفى ، أنا ابن علي المرتضى ، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا : لا إله إلا الله .

أنا ابن مَن ضرب بين يدي رسول الله بسيفَين ، وطعن برمحَين ، وهاجر الهجرتَين ، وبايع البيعَتين وقاتل ببدر وحنَين ، ولم يكفر بالله طرفة عَين .

أنا ابن صالح المؤمنين ، ووارث النبيين ، وقامع الملحدين ، ويعسوب المسلمين ، ونور المجاهدين وزين العابدين ، وتاج البكائين ، وأصبر الصابرين ، وافضل القائمين من آل ياسين رسول رب العالمين . أنا ابن المؤيد بجبرئيل ، المنصور بميكائيل ، أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين ، وقاتل المارقين والناكثين والقاسطين ، المجاهد أعداءه الناصبين ، وأفخر من مشى من قريش أجمعين ، وأول من أجاب واستجاب لله ولرسوله من المؤمنين ، وأول السابقين ، وقاصم المعتدين ، ومبيد المشركين ، وسهم من مرامي الله على المنافقين ، ولسان حكمة العابدين ، وناصر دين الله ، وولي أمر الله ، وبستان حكمة الله ، وعيبة علمه .

سمحٌ ، سخيٌّ ، بهيٌّ ، بهلولٌ ، زكيٌّ ، أبطحيٌّ ، رضيٌّ ، مقدامٌ ، همامٌ ، صابرٌ ، صوام ، مهذبٌ ، قوامٌ ، قاطعُ الأصلاب ، ومفرقُ الأحزاب ، أربطهم عناناً ، وأثبتهم جَناناً ، وأمضاهم عزيمة ، وأشدهم شكيمة ، أسد باسل ، يطحنهم في الحروب إذا ازدلفت الأسنَّة وقربت الأعنَّة طحن الرحا ، ويذروهم فيها ذرو الريح الهشيم ، ليث الحجاز ، وكبش العراق ، مكيٌّ مدنيٌّ خيفيٌّ عقبيٌّ بدريٌّ أحديٌّ شجريٌّ مهاجريٌّ . من العرب سيدها ، ومن الوغى ليثها ، وارث المشعَرين وأبو السبطَين : الحسن والحسين ، ذاك جدي علي بن أبي طالب .

ثم قال : أنا ابن فاطمة الزهراء ، أنا ابن سيدة النساء ...

فلم يزل يقول : أنا أنا ، حتى ضج الناس بالبكاء والنحيب ، وخشي يزيد (لعنه الله) أن يكون فتنة ، فأمر المؤذن فقطع عليه الكلام . فلما قال المؤذن : الله أكبر قال علي : لا شيء أكبر من الله ، فلما قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله ، قال علي بن الحسين : شهد بها شعري وبشري ولحمي ودمي ، فلما قال المؤذن : اشهد أن محمداً رسول الله ، التفت من فوق المنبر إلى يزيد فقال : محمد هذا جدِّي أم جدُّك يا يزيد ؟. فإن زعمت أنه جدك فقد كذبت وكفرت ، وإن زعمت أنه جدي فَلِمَ قتلتَ عِترَته ؟ قال : وفرغ المؤذن من الأذان والإقامة وتقدم يزيد فصلَّى صلاة الظهر " (4) .

الدعاء مدرسة ومنبر :

لقد بعث الله تعالى إلينا رسالته ، ترى كيف نستجيب له . ونرد إلى ربِّنا الرحمن التحية ؟.

نردُّها بالدعاء . فإنه منهج حديث العبد مع ربِّه عزَّ وجلَّ ، كما أن الوحي ذروة حديث الرب مع عباده .

والدعاء مخ العبادة ، ولباب التواصل ، وجوهر الصلاة . وكل دعاء حميد إلاّ أن الله تعالى أنعم علينا بأن هدانا لتعلم أدعية أوليائه ، وبما أورثنا من أدعية النبيِّ وأهل بيته عليه وعليهم الصلاة والسلام . ويبدو أنها جميعاً أدعية تَوارثها عباد الله من الأنبياء ، ومن ثم من الوحي الإلهي ؛ أولا

أقل هي تجليّات الوحي على أفئدة الهداة من عباد الله المقرَّبين ، وانعكاسٌ لمعارف الوحي على قلوبهم الزكية وألسنتهم الصادقة .

فالأدعية المأثورة – إذاً – هي الوجه الآخر للوحي ، وهي ظلاله الوارفة ، وأشعته المنيرة ، وتفسيراته وتأويلاته .

وهكذا كانت الأدعية كنوز المعارف الربانية ، وتلاد الحكم التي لاتنفذ ، وفي طليعتها أدعية الصحيفة السجادية التي جمعت من كلمات الإمام زين العابدين (ع) .

فإلى ماذا كان يهدف الإمام من تلك الأدعية ؟. لا ريب أنها كانت شعاعاً من قلبه المنير بالإيمان ، وفيضاً من فؤاده المتقد بحب الله ، وكانت كلماتُها تتزاحم على شفاه رجل كاد يذوب في هيام ربِّهِ ، ولم تكن تَكَلُّفاً منه .

بلى ، قد حققت أهدافاً عديدة أبرزها تعليم عباد الله كيف يدعون ربَّهم العظيم ، وكيف يتضرعون إليه ، ويتحببون إليه ، ويلتمسون رضاه . ويتوافون على أسمائه الحسنى .. وكيف يطلبون منه حوائجهم ، وماذا يطلبون ؟.

وهذا الهدف الرباني تفرّع بدوره إلى عدة أمور حياتية يذكرها المؤرخون عادةً عند بيان حكمة الصحيفة السجادية ، ونحن نشير إليها باختصار شديد .

أ : أن الضغوط كانت بالغة الشدة في عهد الإمام السجَّاد (ع) إلى درجة أن عقيلة الهاشميين زينب الكبرى (ع) أصبحت لفترة ، وسيطة في شؤون الإمامة بين الإمام والمؤمنين . وفي مثل تلك الظروف العصيبة كان من الطبيعي أن يبث الإمام بصائر الوحي وقيم الرسالة عبر الأدعية التي مشت في الأمة ولا تزال كما يمشي الشذى عند نسيم عليل !!

ب – والإمام كثائر رباني لم يدع معارضة الطواغيت والوقوف بوجه الفساد الذي أوجدوه بسبب الظروف الصعبة ، بل عارضهم بالأدعية التي لم تستطع أجهزة النظام برغم قوتها صد الإمام عنها .

وهكذا أتم الله سبحانه الحجة علينا ، كي لاندع الوقوف بوجه الطغاة بأية وسيلةٍ ممكنة ، حتى في أشد العصور إرهاباً وقمعاً .

ج : وكانت الأدعية – إلى ذلك – وسيلة تربية الناس على التقوى والفضيلة والإيثار والجهاد وذلك بما تضمنت من مفاهيم متسامية ، ومواعظ ربانية ، فكان النخبة من أبناء الأمة يتغذون عليها كما يتغذى النبات الزاكي من أشعة الشمس . فإن حركات المعارضة تحتاج إلى زخم ثوري يدفع أبناءها قُدُماً في طريق المعارضة كالنشرات السرية والجلسات الخاصة ، والشعارات والبيانات ، فإن تلك الصحف المطهرة كانت غذاءً رساليّاً لتلك النخبة المؤمنة في مواجهة النظام الأموي .

ولا تزال أدعية الإمام (ع) التي جمعت في الصحيفة السجادية ، لاتزال هذه الأدعية ذلك الزخم الإيماني الذي يوفر لنا الروح الإيمانية في الأيام العصيبة . ولا أظن – بعد القرآن – أنَّ كتاباً يكون تسلية لفؤاد المحرومين ، وثورة في دماء المستضعفين ، ونوراً في افئدة المجاهدين وهدى على طريق الثائرين كالصحيفة السجادية ، فسلام الله على تلك النفس الزكية التي فاضت بها ، وسلام الله على من تبتل

بها مع كل صباح ومساء .

الشعر منبر سيَّار :

تناغم الحياة ينعكس في ضمير الإنسان بحبك أوزان الشعر ومعانيه البديعة . وكانت العرب في الجاهلية وفي العصور الإسلامية الأولى ، بالغة الإهتمام بالشعر . وقد مدح ربُّنا سبحانه في سورة الشعراء أولئك المؤمنين منهم الذين ينتصرون للمظلوم . وقد اهتم أئمة الهدى (ع) بالشعر كمنبر سيار يمشي بين الناس بانسياب . كما أن الطغاة بدورهم استخدموا الشعراء مطية لإعلامهم المضلَّل . وقد قيل إن الإمام زين العابدين (ع) نظم الشعر . واشهر ما ينقل عنه تلك الرائعة التي يقول فيها :

نحن بنو المصطفى ذوو غصص * يجرعها في الأنـــــام كاظمنا

عظيمة فـي الأنـــــام محنتـــــنـا * أولنا مبــتـــــلـى و آخــــــرنـــا

يفـرح هذا الــورى بعـــــــيـدهمُ * و نحـن أعيــــادنا مـــــــآتمنـا

والناس في الأمن والسرور، وما * يـأمــن طـــول الـزمان خـائفــــنـا

وما خصصنا به من الشرف الطا * ئـــــل بـــــيـن الأنــام آفتـــــــنـا

يُحْكَم فينا ، و الحكــــم فيــه لنـا * جـاحدُنـا حقَّنـا و غاضبـــنـا [(5)]

ونسب إليه ابن شهر اشوب في المناقب قوله :

لكم مــا تـــدَّعون بغـــيـر حَقٍّ * إذا مِـيز الصحـاحُ مـن الْمـراضِ

عـرفتمْ حقّـــَنـا فجـحـــدتمونـا * كمـا عـــرف الســواد من البياضِ

كتابُ اللـه شــاهدُنـا عــــليكم * وقاضينا الإلــه ، فنعم قـــاض [(6)]

أما تأييده للشعراء المدافعين عن الحق ، فنعرفه من خلال قصة مع الفرزدق الذي كان محسوباً على بلاط الأمويين ، إلاّ أنه كان ينتمي تاريخيّاً إلى البيت العلوي . فلما وجد فرصة فاضت قريحته بالرائعة المعروفة . فلما غضب عليه هشام بن عبد الملك والسلطة الأموية واعتقل ، بادر الإمام بجائزته . وبقي إلى آخر حياته يعيش في ظل الإمامة الإسلامية حسبما يذكر بعض المؤرخين .

أما رائعته وقصتها . فهي التالية :

رواها السبكي في طبقات الشافعية بسند متصل إلى ابن عائشة عبد الله بن محمد عن أبيه ، قال : حج هشام بن عبد الملك فطاف بالبيت فجهد أن يصل إلى الحجر فيستلمه فلم يقدر عليه ، فنُصب له منبرٌ وجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه أهل الشام ، إذ أقبل علي بن الحسين بن علي بن أبي

طالب ، وكان من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرجاً ، فطاف بالبيت فلما بلغ الحجر تنحَّى له الناس حتى يستلمه ، فقال رجل من أهل الشام مَن هذا الذي قد هابه الناس هذه الهيبة ؟. فقال : هشام لا أعرفه ، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام . وكان الفرزدق حاضراً فقال الفرزدق : ولكني أعرفه. قال الشامي : من هو يا أبا فراس ؟. فقال الفرزدق (وقد توافقت روايتا سبط ابن الجوزي والسبكي إلاّ في أبيات يسيرة ، وهذا ما ذكراه) :

هذا الذي تَعرف البطحاءُ وطأتَهُ * و البيت يعرفه و الْحِلُّ و الحَرَمُ

هذا ابنُ خير عبادِ اللهِ كُلِّهمُ * هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العلَمُ

يكادُ يَمْسِكُه عرفانُ راحَتِه * ركنُ الحطيم إذا ما جاءَ يَستلمُ

إذا رأتْهُ قريشٌ قالَ قائِلُها * إلى مَكارمِ هذا يَنتهي الكرَمُ

إنْ عُدَّ أهلَ التُّقى كانوا ذوي عددٍ * أو قيل مَن خيرُ أهلِ الأرضِ قيلَ هُمُ

هذا ابنُ فاطمةٍ إن كنتَ جاهلَهُ * بِجدِّه أنبياءُ الله قد خُتِموا

وليسَ قولُك مَنْ هذا بِضائرِهِ * أَلْعُرْبُ تَعرف مَن أنكرتَ والعجَمُ

يُغضي حَياءً ويُغضَى مِنْ مَهابَتِهِ * فمَا يُكلَّمُ إلاّ حينَ يبتسمُ

يُنْمَى إلى ذروةِ العزِّ التي قَصُرَتْ * عنها الأكفُّ وعن إدراكِها القدَمُ

من جدَّه دان فضل الأنبياء له * وفضل أمته دانت له الأممُ

ينشقُّ نورُ الهدى عن صَبْحِ غُرَّتِهِ * كالشمس تَنْجابُ عن إِشرافِها الظُّلَمُ

مشتقَّةٌ من رسولِ الله نبعتُه * طابتْ عناصرُه والْخيمُ والشِّيَمُ

الله شرَّفَهُ قِدْماً وفضَّله * جرى بذاك له في لوحِهِ القلَمُ

كِلتا يَديهِ غياثُ عمَّ نفعُهما * يَستوكَفانِ ولا يَعروهما العدَمُ

سهلُ الخليقـــةِ لا تُخـــشى بـوادرهُ * يـــزينه اثنـــانِ حُسْنُ الْخُلـقِ والكرَمُ

حمَّالُ أثـــقـالِ أقـــوامٍ إذا فُـدِحوا * رحـــبُ الفِناء ، أريـــبٌ حين يَعـــتزمُ

ما قـــال : لا ، قـــطُّ إلاّ في تشهّدهِ * لـــولا التشهـــدُ كـــانتْ لاؤه نـــعَمُ

عَـــمَّ البـــريةَ بالإحسان فانقشعتْ * عـــنه الغـــيابةُ لا هـــلقٌ ولا كَـهَـمُ

مِنْ مَعشرٍ حـــبُّهمْ دين، وبُغـــضُهُـمُ * كـــفرٌ ، وقـــربهمُ ملجاً ومُعْتَصَـــمُ

لا يَستـــطيـــع جوادٌ بَعْدَ غـــايتِهم * ولا يُـــدانيهـمُ قـــومٌ وإن كـــرَمُـوا

هـمُ الْغـــيُوثُ إذا مـــا أزمـةٌ أزمتْ * والأسْـــدُ أُســـدُ الشرى والرأي مُحْتَدِمُ

لا يُنـــقص العسرُ بَسْطاً مـــن أَكُفِّهِم * سِـــيَّانِ ذلك إن أَثـــرَوْا وإنْ عُـــدِمُوا

يَستدفع السوءُ والبـــلـوى بحـــبِّهِمْ * ويُســـتربُّ بـــه الإحســـانُ والنعَمُ

مَقـــدَّمٌ بعـــدَ ذِكَرِ اللـــه ذِكْرُهُـمُ * فـــي كـــلِّ بَدْءٍ ، ومَخـــتومٌ بِهِ الْكَلِمُ

يَأبَـــى لهمْ أن يَحـــلَّ الذمُّ ساحتَهـم * خـــيمٌ كريمٌ ، وأيـــدٍ بالنَّدى هُضُـــمُ

أيُّ الخـــلائـقِ ليســـتْ فـي رقابهمُ * لأَوَّلـــيَّـةِ هَـــذا أولُـــهُ نـــعَـــمُ

مَن يَعُـرِفِ اللـــه يَعْرِفْ أَوَّلِيّـــةَ ذا * أَلـــدِّيْنَ مِنْ بَـــيْتِ هَذا نَـــالَهُ الأُمَـــمُ

هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) ، فغضب هشام وأمر بحبس الفرزدق بعسفان بين مكة والمدينة ، فبعث إليه علي بألف دينار فردها وقال : إنما قلت ما قلت غضباً لله ولرسوله ، فما آخذ عليه أجراً . فقال علي : نحن أهل بيت لا يعود إلينا ما أعطينا ، فقبلها الفرزدق وهجا هشاماً فقال :

أَيحسبنـي بـــين المـدينـة والتـي * إليها قلـوبُ الناس يَهـوي مُنِيبُهـا

يَقَلِّبُ رأسـاً لـم يكـــن رأسَ سَيْـدٍ * وعَيـــنـاً لـه حولاءَ بـادٍ عُيوبُهـا

فأُخبر هشامُ بذلك فأطلقه . ولكنه قطع راتبه من الديوان ، وكان ألف دينار سنويّاً ، فاشتكى إلى الإمام فأعطاه أربعين ألف دينار وقال له : لو كنت تحتاج إلى أكثر لأعطيتك. فعاش الفرزدق أربعين عاماً ثم مات رحمه الله تعالى .

رسالة الحقوق :

يبحث بعض الناس عن الدرجات العلى في الإيمان ويتساءلون : كيف نجتهد حتى نصبح مؤمنين حق الإيمان ؟. لمثل هؤلاء كتب الإمام زين العابدين (ع) رسالة الحقوق التي تشرح واجبات المؤمن ومسوؤلياته تجاه الخالق والناس ، وتحدِّد – بالتالي – طبيعة العلاقة القائمة على أسسٍ متوازنةٍ وعادلةٍ ، وقد استهلّت الرسالة بما يلي :

" إعلم – رحمك الله – أن لله عليك حقوقاً محيطةً بك في كل حركة تحرَّكتها ، أو سكَنة سكَنتها ، أو منزلة نزلتها ، أو جارحة قلَّبتها ، أو آلة تصرفت بها ؛ بعضُها أكبر من بعض . وأكبر حقوق الله عليك ما أوجبه عليك نفسك من قرنك إلى قدمك ، على اختلاف جوارحك ، فجعل لبصرك عليك حقّاً ، ولسمعك عليك حقّاً ، وللسانك عليك حقاً ، وليدك عليك حقّاً ، ولرجلك عليك حقّاً ، ولبطنك عليك حقّاً ، ولفرجك عليك حقّاً ، فهذه الجوارح السبع التي بها تكون الأفعال . ثم جعل لأفعالك عليك حقوقا : لصلاتك عليك حقّاً ، ولصومك عليك حقّاً ، ولصَدَقتك عليك حقّاً ، ولهدْيِك عليك حقّاً

، ولأفعالك عليك حقّاً . ثم تُخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوي الحقوق الواجبة عليك ، وأوجَبُها عليك حقُّ أئمتك ، ثم حقوق رعيتك ، ثم حقوق رَحِمك " (7) .

ويستمر الإمام (ع) في بيان هذه الحقوق وفروعها ، ويبيِّن من خلالها العلاقة المثلى بين الانسان وبين الخلق والخالق . وسوف نستوحي من دراسة رسالة الحقوق البصائر التالية :

أولاً : أن حديث الإمام (ع) كان موجهاً للصفوة من أهل الإيمان ، الذين نشروا الكمال وسعوا إليه سعيه ، لذلك تجد الحقوق المذكورة في هذه الرسالة تجمع بين الحقوق الواجبة والأخرى المندوبة . بل إن أكثرها من النوع الثاني .

ثانياً : إن هذه الرسالة وأمثالها مما نجده عند أئمة أهل البيت (ع) في صيغة رسائل أو وصايا مفصَّلة، والتي جمعها العالم الكبير الحسن بن علي بن شعبة الحلبي في كتابه الفذ (تحف العقول) كانت بمثابة دروس مركَّزة في التربية الرسالية توارثها الصالحون من أولياء أهل البيت (عليهم السلام) بهدف بناء القدوات المثلى والطليعة المتميزة من أبنائهم ليكونوا شهداء على الناس .

وما أحوجنا نحن المسلمين اليوم إلى العودة إليها في مناهج التربية ، وبالذات في الحوزات العلمية التي هي الامتداد الرسالي لخط أهل البيت النبوي (ع) .

ثالثاً : إن هذه الرسالة تحافظ على توازن الشخصية الإيمانية وتصونها من التطرف نحو جانب من الشريعة وإهمال سائر الجوانب ؛ فلابد أن تتسع صدورنا لكافة أبعاد الشريعة ، وضمن برامج محددة نجدها في مثل رسالة الحقوق .

وكلمة أخيرة : إن هذه الرسالة تعكس البصيرة القرآنية ذات الشمول والعمق والدقة التي تتناسب ومقام الإمامة لسيد الساجدين (ع) ، والتي يعجز عن مثلها أي فقيه أو عالم إن لم يكن متصلاً برافد الرسالة الذي لا ينضب . فسلام الله على من أرسلها ، وبارك الله لمن استجاب لها.

كراماته وشهادته :

استفاضت كتب الأثر بالحديث القدسي الذي ينطق عن ربِّ العزة بالقول : " عبدي أطعني تكن مثْلي (أو مَثلي) أقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون " .

وكتاب الله العزيز حافل بأمثلة واقعية من تاريخ الأنبياء والصالحين الذين استجاب الله دعاءهم بما أعجز الناس . أليس طوفان نوح وسفينته ، ونيران إبراهيم التي جعلها الله تعالى برداً وسلاماً ، وعصا موسى التي ألقاها فجعلها الله ثعباناً مبيناً ، وحديث عيسى في المهد صبيّاً ، واستجابة دعاء إبراهيم ثم زكريا حينما رزقهما الله أولاداً وقد بلغا من الكبر عتيّاً . أليس كل ذلك من كرامة الله لأوليائه المخلصين ؟. فلماذا يصعب على البعض تصديق كرامات أولياء الله الآخرين ، كما

يصدقون بكرامات أولياء الله السابقين ؟. أوليس الحديث النبوي الشريف يقول : " علماء أُمّتي كأنبياء بني إسرائيل " ؟. فكيف تصدق المعجزة على عهد بني إسرائيل بنص القرآن ، ولا تأتي الكرامة على يد أهل بيت الرسول ؟.

وهذا علي بن الحسين (ع) ، الذي قرأنا معاً بعض صفاته ، أَيعزُّ على الله سبحانه أن يجري على يدَيه الكرامات ؟ ومَن أولى بها ممن كان على مثل تلك الصفات ، قوَّامَ الليل ، صوَّام النهار ، بكّاءً ، سجّاداً ، إلخ ...

ونحن إذ نقتطف من تاريخه (ع) نزراً يسيراً من كراماته ، فلكي نزداد يقيناً بأن ربَّنا سبحانه يستجيب دعوة المخلصين من عباده الذين جأروا إليه بكل كيانهم وأبعاد وجودهم .. ثم نزداد للأئمة من أهل

البيت (ع) حبّاً ، فإن حُبَّهم نجاةٌ من النار ووسيلةٌ إلى الله عزَّ وجلَّ .

1- من كراماته (ع) ، أن الله ألهمه من علمه عبر رؤيا شاهد فيها رسول الله (ص) ، ما أظهر كرامته وفضله . والقصة كما يلي :

روي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال :

" لمّا وُلِّيَ عبد الملك بن مروان الخلافة كتب إلى الحجاج بن يوسف :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجاج بن يوسف .

أما بعد : فانظر دماء بني عبد المطلب فاحقنها واجتنبها ، فإني رأيت آل ابي سفيان لما ولعوا فيها لم يلبثوا إلاّ قليلاً ، والسلام . قال : وبعث بالكتاب سرّاً .

وورد الخبر على علي بن الحسين (ع) ساعة كتب الكتاب وبعث به إلى الحجاج ، فقيل له : إنّ عبد الملك قد كتب إلى الحجاج كذا وكذا ، وإن الله قد شكر له ذلك ، وثبَّت ملكه وزاده برهة .

قال : فكتب علي بن الحسين (ع) :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من علي بن الحسين بن علي .

أما بعد : فإنك كتبت يوم كذا وكذا ، من ساعة كذا وكذا من شهر كذا وكذا بكذا وكذا . وإن رسول الله (ص) أنبأني وخبَّرني . وإن الله قد شكر لك ذلك وثبَّت ملكك وزادك فيه برهة .

وطوى الكتاب وختمه وأرسل به مع غلام له على بعيره ، وأمره أن يوصله إلى عبد الملك ساعة يقدم عليه . فلما قدم الغلام أوصل الكتاب إلى عبد الملك ، فلما نظر في تاريخ الكتاب وجده موافقاً

لتلك الساعة التي كتب فيها إلى الحجاج ، فلم يشك في صدق علي بن الحسين (ع) وفرح فرحاً شديداً ، وبعث إلى علي بن الحسين (ع) بوقر راحلته دراهم ثواباً لما سرَّه من الكتاب " (8) .

2- وكذلك قصته مع أبي خالد الكابلي ، ويرويها الإمام الباقر (ع) كالتالي :

" كان أبو خالد الكابلي يخدم محمد بن الحنفية دهراً (وهو ابن الإمام علي ، وعم الإمام السجاد عليهما السلام) . وما كان يشك في أنه إمام حتى أتاه ذات يوم ، فقال له : جعلت فداك إن لي حرمة ومودة وانقطاعاً ، فأسألك بحرمة رسول الله (ص) وأمير المؤمنين (ع) إلاّ أخبرتني أنت الإمام الذي فرض الله طاعته على خلقه ؟. قال : فقال : يا أبا خالد حلّفتني بالعظيم . الإمام عليٌّ بن الحسين (ع) عَلَيَّ وعلَيك وعلى كلِّ مسلم . فأقبل أبو خالد لَمَّا أن سمع محمد ابن الحنفية ، وجاء إلى علي بن الحسين (ع) فلما استأذن عليه أُخبر أن ابا خالد بالباب ، فأذن له .

فلما دخل عليه ودنا منه ، قال : مرحباً يا كنكر . ما كنت لنا بزائر ما بد لك فينا ؟.

فخر أبو خالد ساجداً شاكراً لله تعالى مما سمع من علي بن الحسين (ع) ، فقال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى عرفت إمامي .

فقال له علي (ع) : وكيف عرفت إمامك يا ابا خالد ؟.

قال : إنك دعوتني باسمي الذي سمَّتني به أمي التي ولدتني . وقد كنت في عمياء من أمري ، ولقد خدمت محمد ابن الحنفية عمراً من عمري ولا أشك أنه إمام ، حتى إذا كان قريباً سألته بحرمة الله تعالى وحرمة رسوله (ص) وبحرمة أمير المؤمنين (ع) فأرشدني إليك ، وقال : هو الإمام عَلَيَّ وعلَيك وعلى جميع خلق الله كلهم . ثم أذنت لي فجئت فدنوت منك وسمَّيتني باسمي الذي سمَّتني أمي ، فعلمت أنك الإمام الذي فرض الله طاعته عَلَيَّ وعلى كلِّ مسلم " (9) .

3- ويذكر الشيخ الطوسي القصة التالية أيضاً :

خرج علي بن الحسين (ع) إلى مكة حاجّاً حتى انتهى إلى وادٍ بين مكة والمدينة ، فإذا هو برجل يقطع الطريق ، قال :

فقال لعلي إنزل .

قال : تريد ماذا ؟.

قال : أريد أن أقتلك وآخذ ما معك .

قال : فأنا أُقاسمك ما معي وأُحِلُّك .

قال : فقال اللص : لا .

قال : فدع معي ما أتبلّغ به .

فأبى .

قال : فأين ربك ؟.

قال : نائم .

قال : فإذا أَسَدانِ مُقبلان بين يَديه فأخذ هذا برأسه وهذا برجلَيه .

قال : زعمتَ أنّ ربك عنك نائم (10) .

4- ومن كراماته صلوات الله وسلامه عليه ، ما ظهر عند وفاته . فلقد توفي الإمام بعد أن دس إليه الأمويون السم في عام (94) في شهر محرم في اليوم الخامس والعشرين ، وقيل في اليوم الثامن عشر. وفي تلك السنة توفي طائفة من الفقهاء حتى سميت سنة الفقهاء . ولست استبعد أن يكون النظام الأموي في عهد الوليد بن عبد الملك قد دس السم إلى المعارضين وفيهم كبار الفقهاء من أمثال سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وسعيد بن جبير . وجاء في التواريخ أنه توفي في تلك السنة عامة فقهاء المدينة (11) .

وهل يعقل أن يموت كل الفقهاء في سنة واحدة صدفةً ، علماً بأن المعروف أن الإمام السجاد (ع) استشهد متأثراً بالسم الذي دسه إليه عبد الملك بن مروان في ظروف غامضة .

وكيفما كان الأمر فقد ظهرت عند وفاته كرامات منه (ع) ، فقد أُغمي عليه فبقي ساعة ثم رفع عنه الثوب ثم قال : " الحمد لله الذي أورثنا الجنة نتبوَّأ منها حيث نشاء فنعم أجر العاملين " ثم قال : " احفروا لي (قبراً) وابلُغوا إلى الرسخ (الثابت من الأرض) ثم مد الثوب عليه فمات " (12) .

وظهرت بعد وفاته الكرامة التي ينقلها سعيد بن المسيّب ، وبها نختم هذه الصفحات المشرقة بحياة الإمام زين العابدين (ع) .

فقد روي عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، وعبد الرزاق ، عن معمر ، عن علي بن زيد قال :

قلت لسعيد بن المسيب إنك أخبرتني أن علي بن الحسين النفس الزكية وأنك لا تعرف له نظيراً ؟.

قال : كذلك ، وما هو مجهول ما أقول فيه . والله ما رؤي مثله .

قال علي بن زيد : فقلتُ : والله إنّ هذه الحجة الوكيدة عليك يا سعيد فلم لم تصلِّ على جنازته ؟.

فقال : إنّ القرّاء كانوا لايخرجون إلى مكة حتى يخرج علي بن الحسين (ع) . فخرج وخرجنا معه ألف راكب ، فلمّا صرنا بالسقيا نزل فصلّى وسجد سجدة الشكر ..

وفي رواية الزهري ، عن سعيد بن المسيب قال :

كان القوم لايخرجون من مكة حتى يخرج علي بن الحسين سيد العابدين . فخرج (ع) فخرجت معه فنزل في بعض المنازل فصلّى ركعتين فسبَّح في سجوده ، فلم يبق شجر ولا مدر إلاّ سبَّحوا معه ، ففزعنا .

فرفع رأسه وقال : يا سعيد أفزعت ؟

قلت : نعم يابن رسول الله .

فقال : هذا التسبيح الأعظم . حدثني أبي عن جدي عن رسول الله (ص) أنه قال : لا تبقى الذنوب مع هذا التسبيح ، فقلت : علمنا .

وفي رواية علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب أنّه : سبح في سجوده فلم يبق حوله شجرة ولا مدرة إلاّ سبّحت بتسبيحه ، ففزعت من ذلك وأصحابي .

ثم قال : " يا سعيد إن الله جل جلاله لما خلق جبرئيل ألهمه هذا التسبيح فسبَّحت السماوات ومن فيهن لتسبيحه الأعظم . وهو إسم الله جلَّ وعزَّ الأكبر .

يا سعيد أخبرني أبي الحسين ، عن أبيه ، عن رسول الله (ص) عن جبرئيل ، عن الله جلَّ جلالَه أنه قال :

ما من عبد من عبادي آمن بي وصدّق بك وصلّى في مسجدك ركعتين على خلاء من الناس إلاّ غفرت له ما تقدم من ذنبه وما تأخر " .

فلم أَرَ شاهداً أفضل من علي بن الحسين (ع) حيث حدثني بهذا الحديث . فلما أن مات شهد جنازته البر والفاجر ، وأثنى عليه الصالح والطالح ، وانها لو يتبعونه حتى وضعت الجنازة فقلت : إن أدركت الركعتين يوماً من الدهر فاليوم هو . ولم يبق إلاّ رجل وامرأة ، ثم خرجا إلى الجنازة ، وَثَبْتُ لأصلّي فجاء تكبير من السماء فأجابه تكبير من الأرض ، وأجابه تكبير من السماء فأجابه تكبير من الأرض ، ففزعتُ وسقطتُ على وجهي ، فكبر من في السماء سبعاً ومن في الأرض سبعاً وصُلِّي على علي بن الحسين صلوات الله عليهما ودخل الناس المسجد فلم أدرك الركعتين ولا الصلاة على علي بن الحسين صلوات الله عليهما ، فقلت : يا سعيد لو كنت أنا لم أختر إلاّ الصلاة على علي بن الحسين ، إن هذا لهو الخسران المبين ، فبكى سعيد ، ثم قال : ما أردت إلاّ الخير ليتني كنت صلّيت عليه ، فإنه ما رؤي مثله (13) .

---

(1) المصدر : (ص 209) .

(2) المصدر : (ص 209) .

(3) المصدر .

(4) ناسخ التواريخ : (ج 2 في حياة الإمام زين العابدين ص 241) .

(5) بحار الأنوار : (ج 45 ، ص 138 – 139) .

(6) في رحاب أهل البيت : (ج 3 ، ص 249) .

(7) في رحاب أئمة أهل البيت : (ج 3 ، ص 216) .

(8) بحار الأنوار : (ج 46 ، ص 44) .

(9) المصدر : (ص 46) .

(10) المصدر : (ص 41) .

(11) المصدر : (ص 154) نقلاً عن تذكرة الخواص : (ص 187) (طبعة إيران) وعن تاريخ ابن عساكر .

(12) المصدر : (ص 153) .

(13) المصدر : (ص 149 – 150) .